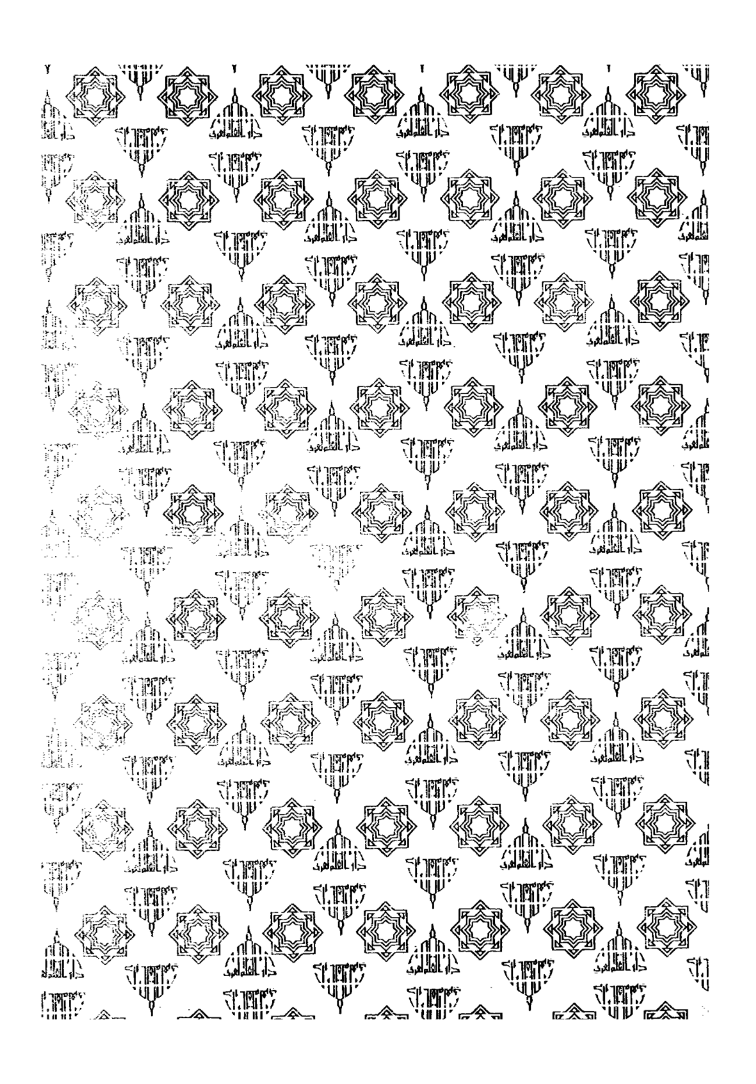
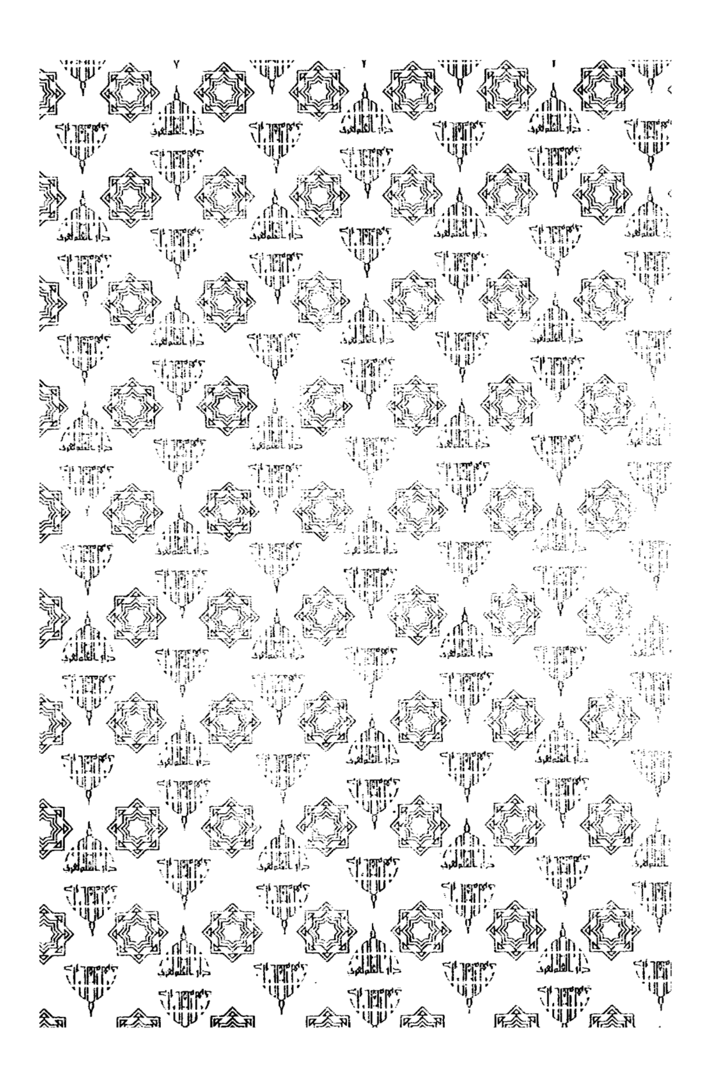
عمالقة الإسلام

٥ - عمرو بن العاص
٦ - الزبير بن العوام

إعداد
عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي





سلسلة عمالقة الإسلام

٥

عمرو بن العاص

" محررُ مصرَ و قاهر الرومانِ "

إعداد وتأليف

عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خلفَ الفُنْدُقِ السِّياحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب | ٧٨ | فاكس ٠٢١،٢١٢٣٦١



عمرو بن العاص

اسمهُ ونسبهُ

هو : عمروُ بنُ العاصِ بنِ وائلِ بنِ هشامِ بنِ سعدِ بنِ سهمٍ ابنِ عمروِ بنِ هصيصِ بن كعبِ بنِ لؤي بنِ غالبِ القرشيِّ السهميّ .

أحدُ سادةِ قريشٍ و زعمائِها .

كما أنهُ أحد دهاه العربِ وشجعانِهم وذوي آرائِهم ، وصاحبُ المكانةِ العالية والمرموقةِ بينهم .

كنيتهُ

كان يُكنى أبا عبدِ اللهِ ،وقيل : أبا مُحَمَّدٍ .

وأرى أنّهُ يُكنى أبا عبدِ اللهِ ، بابنه عبدِ اللهِ بنِ عمروِ الذي كان أكبَر أبنائِهِ ،وقد روي أنّ ابنَهُ عبدَ اللهِ كان أصغرَ منهُ باثنتي عشرةَ سنةً رضي اللهُ عنه وأرضاه .

إسلامه

أسلم عمرو بنُ العاص رضي الله عنه قبل الفتحِ بستةِ أشهرٍ مع خالدِ بنِ الوليدِ رضي الله عنه .

ولعل بين إسلامه وإسلامِ خالدٍ رضي الله عنهما قاسماً مشتركاً ، فهما قد ذهبا معاً إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ليعلنا إسلامهما .

ولنصغِ إليه وهو يحدثُنا كيف التقى بخالدٍ رضي الله عنه ورافقه إلى المدينة ، وأعلنا إسلامَهما معاً بين يدي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ،يقولُ عمروٌ :

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريشٍ كانوا يرون رأيي ، ويسمعون مني ،فقلتُ لهم :تعلمونَ ، والله إني أرى أمرَ محمدٍ يعلو الأمورَ عُلواً منكراً ، وإني قد رأيتُ أمراً فما ترون فيه ؟

قالوا :وماذا رأيتَ ؟

قال: رأيتُ أن نلحقَ بالنجاشي فنكونَ عنده، فإن ظهر محمدٌ على قومِنا كنا عند النجاشي ، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمدٍ ، وإن ظهر قومُنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلاّ خيرٌ .

قالوا : إنّ هذا هو الرأيُ .

قُلتُ : فاجمعوا لنا ما نهديه له ،وكان أحبُّ ما يُهدى إليه من أرضنا الأدَم [1]، فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدِمنا عليه ، فو الله إنّا لعنده إذ جاءه عمروُ بنُ أميةَ الضمريّ ،

(١) الأدَمُ : الجلدُ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثهُ إليه في شأنِ جعفر وأصحابِهِ .

قال: فدخل عليه ثم خرج من عندهِ .

قال: فقلتُ لأصحابي: هذا عمروُ بنُ أميةَ الضَّمريُّ ،لو قد دخلتُ على النجاشي وسألتُهُ إياه فأعطانيه ،فضربتُ عنقهُ ، فإذا فعلتُ ذلك رأت قريشٌ أنّي قد أجزأتُ عنها [1] حين قتلتُ رسول محمدٍ .

قال: فدخلتُ عليه فسجدتُ له كما كنتُ أصنعُ .

فقال: مرحباً بصديقي ،أهديتَ إليَّ من بلادك شيئاً ؟

قلتُ: نعم أيُّها الملكُ، قد أهديتُ إليك أَدَماً كثيراً، ثم قربتهُ إليه فأعجبهُ .

ثم قلتُ له : أيُّها الملك ، إنّي قد رأيتُ رجلاً خرج من عندك، وهو رسولُ رجلٍ عدوٍ لنا، فأعطينيه لأقتلهُ، فإنّه قد أصاب من أشرافِنا وخيارِنا .

قال: فغضب، ثم مَدَّ يَدَهُ فضرب بها أنفَهُ ضربةً ظننتُ أنّهُ قد كسرهُ، فلو انشقت ليَ الأرضُ لدخلتُ فيها فرقاً منه .

ثم قلتُ له: أيُّها الملك ، والله لو ظننتُ أنّك تكره هذا ما سألتُكَهُ .

---

(١) أجزأت عنها: كفيتها .

قال: أتسألني أن أعطيكَ رسولَ رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر (١) الذي كان يأتي موسى لتقتلهُ...

قال : قلتُ أيُّها الملك ، أكذاك هو ؟

قال : ويحك يا عمرو، أطعني واتّبعْهُ، فإنّه وا للهِ لعلى الحقِ وليظهرنَّ على من خالفهُ، كما ظهر موسى على فرعونَ وجنودِهِ .

قلتُ : أفتبايعني له على الإسلام ؟

قال: نعم .

فبسط يَدهُ فبايعتُهُ على الإسلام، ثم خرجتُ إلى أصحابي وقد حال رأيي عمّا كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي .

وهذا يقضي أن النجاشيَّ هو الذي دعاه إلى الإسلام وحثَّهُ عليه ، ورغّبهُ فيه ، فشرح ا للهُ صدرهُ إلى الإسلام ، وأحبَّهُ ، واقتنع فيه ، ومال إليه .

ولكن لابدّ لعمروٍ أن يعلن إسلامَهُ بين يدي رسولِ ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، ويبايعَهُ شخصياً على الإسلام .

ولنصغِ إليه مرةً أخرى يُحدثنا عن إسلامِهِ ، يقول :

ثم خرجتُ عامداً إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لأسلِمَ، فلقيتُ خالدَ بنَ الوليدَ، وذلك قُبيلَ الفتحِ، وهو مُقبلٌ من مكة .

(١) الناموس الأكبر : السر ، يقصد جبريل عليه السلام .

فقلتُ : أين يا أبا سليمانَ ؟

قال : وا للهِ لقد استقام المِنسم (١)، وإنّ الرجلَ لنبيٌّ، أذهبُ وا للهِ، فاسلمَ، فحتى متى ... ؟!

قال: قلتُ وا للهِ ما جئتُ إلاّ لأسلمَ .

قال: فقدمنا المدينةَ على رسولِ ا للهِ صلى ا لله عليه وسلم، فتقدم خالدُ بن الوليدِ فأسلم وبايعَ .

ثم دنوتُ ، فقلتُ: يا رسول ا لله، إنّي أبايعكَ على أن يُغفرَ لي ما تقدم من ذنبي .

فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: يا عمرو، بايعْ فإنَّ الإسلامَ يجبُّ (٢) ما كان قبله ، وإنَّ الهجرةَ تَجبُّ ما كان قبلها .

قال : فبايعتُهُ ثم انصرفتُ .

فضائلُه

أسلم عمروُ بنُ العاص رضي ا لله عنه ، وبايعَ النبيَّ صلى ا لله عليه وسلم ، وفتح لنفسِهِ باباً من الأمنِ والسلام ، ليغفِرَ ا للهُ تعالى له ما تقدم من ذَنبِهِ، وما بدرَ منهُ من كفرٍ با للهِ، وبغضٍ لرسولِ ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، وتآمرٍ على الإسلام والمسلمين .

وحين أسلمَ عمروُ بنُ العاصِ رضي ا لله عنه، قال النبيُّ

(١) استقام المنسمْ : تبين الطريق ووضح .   (٢) يجبُّ : يقطع .

صلى ا لله عليه وسلم :

أسلمَ الناسُ وآمن عمروُ بنُ العاصِ .

وعن طلحةَ بنِ عبد ا للهِ رضي ا لله عنه قال: سمعتُ رسولَ ا للهِ صلى ا لله عليه وسلم يقولُ: إنَّ عمروَ بنَ العاصِ من صالحي قريشٍ .

وفي الحديث الآخر: "ابنا العاصِ مؤمنان" أي عمرو وأخوه هشام بن العاص .

وفي الحديث الآخر: "نِعمَ أهل البيتِ عبدُ ا للهِ وأبو عبدِ ا للهِ وأم عبدِ ا للهِ"[1] .

وهو الذي نال ثقة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، فكان أميرَهُ في بعض غزواتِهِ.

كما أنّ أبا بكرٍ الصديقَ رضي ا لله عنه بعثَهُ في جملةِ مَنْ بعثَ مِنْ أمراءِ الجيشِ إلى الشام ليشهدَ حروبَها وفتوحاتِها، فكانت له الآراءُ السديدةُ، والمواقفُ الحميدةُ، والأقوالُ الرشيدةُ.

ثم بعثه عُمر رضي ا لله عنه إلى مِصرَ ليفتحها.. كما سيأتي إن شاء ا لله تعالى .

وعن عمروٍ رضي ا لله عنه قال : لما بعثه النبيُّ صلى ا لله عليه وسلم عام ذاتِ السلاسلِ ، قال : احتلمتُ في ليلةٍ باردةٍ

---

(١) الأحاديث في البداية والنهاية .

شـديدة الـبردِ ، فأشـفقتُ إن اغتسـلتُ أن أهلـكَ ، فتيممـتُ ثـم صليتُ بأصحابي صلاة الصبحِ .

قال : فلما قدِمنا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ذكرتُ ذلك لهُ ، فقال : ياعمرو ، صليتَ بأصحابكَ وأنتَ جنبٌ ؟..

قال : قلتُ يا رسول الله ، إنّي احتلمتُ في ليلةٍ شديدة البردِ ، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلِكَ ، فذكرتُ قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكُمْ إنَّ الله كان بكم رحيماً ﴾ [1] .

فتيممتُ ثم صليتُ .

فضحكَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ولم يَقُلْ شيئاً [2] .

وفي روايةٍ : فلما قدِموا على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له ، فدعاه فسألهُ عن ذلك .

فقال : يا رسولَ اللهِ، خفتُ أن يقتلني البردُ ، وقد قال الله تعالى : "ولا تقتلوا أنفسكم..... الآية .

وكان من أمرِ تلك الغزوة التي تُسمى بغزوةِ ذاتِ السلاسلِ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، بعث فيها عمروَ بنَ العاصِ، وجعله أميراً عليها ليتألفَهم إن استطاع ، فإن لم يستطِعْ

(١) الآية ٢٩ من سورة النساء . (٢) تفسير ابن كثير .

فهو بأن يزجرَهم أولى من أن يجيءَ زجرهم على يدِ غيرِهِ ، لا سيما أنّ أخوال العاصِ بن وائلٍ من قضاعة .

فلما وصل إلى ماءٍ بأرضِ جذامٍ يقال له : السّلسل ، خاف على من معه من المسلمين ، فبعث إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم يطلبُ منه أن يمدّهُ بعددٍ منَ الرجالِ ، فبعث إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم عدداً من خيرةِ الصحابةِ على رأسِهم أبو عبيدةَ بنُ الجراح رضي الله عنه ، وفيهم أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما، وقال لأبي عبيدةَ : لا تختلفا .

فلما قدِمَ أبو عبيدة على عمرو بن العاصِ ، قال له عمروٌ: إنّما جئتَ مدداً لي .

فقال أبو عبيدةَ : لا ، ولكني على ما أنا عليه ، وأنتَ على ما أنتَ عليه .

أي : أنتَ أميرٌ على من معك وأنا أميرٌ على مَنْ معي .

فقال عمرو : بل أنت مددٌ لي .

فقال أبو عبيدةَ وكان رضي الله عنه سهلاً ليناً : ياعمروُ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: لا تختلفا ، وإنّك إن عصيتني أطعتُكَ .

فقال عمروٌ : فإنّي الأميرُ عليك ، وأنت مددٌ لي .

فقال أبو عبيدةَ : فدونك .

فكان عمروٌ هو الأمير .

وبالتأمل في هذه الحادثة نلمسُ أمرين هامين :

الأول : معجزةٌ لرسولِ ا لله صلى ا لله عليه وسلم ظاهرةٌ وبينةٌ حيثُ قال لأبي عبيدةَ رضي ا لله عنه : لا تختلفا ، فوقع الخلافُ كما توقعَ وهذا الخلافُ كان النبيُّ صلى ا لله عليه وسلم يخشاهُ دائماً على أمته فكان يسعى جاهداً لمحاربتِهِ والقضاء عليه، وتحذيرِ أمته من الوقوعِ فيهِ، فكم حذّرَ وأنذرَ؟ وكم خوّفَ ونفّرَ ؟

وكم قال صلى ا لله عليه وسلم: "من حمل علينا السلاح فليس منا" .

((من سلَّ علينا السيف فليس منا))

((ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ)) .

((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتِلُ والمقتولُ في النارِ)) .

((انصُرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً)) ....إلى غيرِ ذلك مما كان يخشاهُ على أمتِهِ، ويخافُ وقوعهم فيه، فلم يغنِ حذرٌ من قدرٍ .

الثاني: كرامةٌ لعمروٍ رضي ا لله عنه واضحةٌ مسفرةٌ حيثُ جعلهُ النبيُّ صلى ا لله عليه وسلم أميراً على سريةٍ فيها أكابرُ الصّحابةِ مثلُ أبي بكر وعمرَ وأبي عبيدةَ رضي ا لله عنهم أجمعين، وإنّها لثقةٌ كبيرةٌ ومفخرةٌ عظيمةٌ يعتزُ بهما عمروٌ لاختيارِهِ من بين الصحبِ الكرامِ لإمارةِ هذه السّريّةِ، وإنجازِ تلك المهمةِ التي كلفهُ

النبيُّ صلى ا لله عليه وسلم القيامَ بها، فقام بها أتمَّ قيام، وانهزمت قضاعةُ منذ الوقعةِ الأولى ، فلم يغتر عمرو بالنصرِ، ولم ينسَ ذمةَ القرابة واستبقاء الرحمِ الذي بينهُ وبين قضاعةَ .

عمروٌ عند النجاشي

كان عمروُ بنَ العاصِ قبلَ إسلامهِ مُبغضاً للإسلامِ والمسلمين .

وحين كان المسلمون في مكةَ يتعرضون لأنواعِ العذابِ من قبلِ المشركين، ليفتنوهم عن دينهم ويعيدوهم إلى دين الكفر .

فكانوا يأتون النبيَّ صلى ا لله عليه وسلم بين مضروبٍ ومشجوجٍ ومخدوشٍ ويشكون إليه ما أصابهم ، فقال لهم : تفرقوا في البلادِ .

قالوا : أين نذهبُ يا رسولَ ا لله ؟

فأشار إليهم إلى الحبشة ، فإنَّ بها ملكاً لا يُظلَمُ عنده أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ حتى يجعلَ ا للهُ لكم مخرجاً مما أنتم فيهِ .

وحين علم المشركون بمكة أنَّ المسلمين المستضعفين قد فرّوا منهم، ووجدوا لأنفسهم دارَ هجرةٍ وأمانٍ غضبوا غضباً شديداً، واغتاظوا في أنفسهم ، واتفقوا أن يبعثوا إلى النجاشي من يقنعُهُ بضرورةِ إعادةِ المهاجرينَ الفارّين إليهِ .

ولكن من يستطيعُ القيام بمثلِ هذا الأمرِ ؟

لابـدَّ أن يكـونَ علـى علاقـةٍ وثيقـةٍ مـع الملـك النجاشـي، ومعرفةٍ به ، وصداقةٍ قديمةٍ تربـطُ بينهمـا ، فمـن هـو هـذا الرجـل الذي تُوجدُ فيه هذهِ الشروط ؟

إنّه عمرو بن العاصِ الصّديقُ القديم للملك النجاشي .

لقد وقع الاختيـار عليـه لإنجـازِ هـذا الأمـر ، لاسيما وأنَّ عمراً يتمتع بشخصيةٍ قوية ، وذكاءٍ خارقٍ، ودهاء.

وبعثوا معه عبد الله بـن أبـي ربيعـة ، بعـد أن جمعـوا لهمـا أموالاً كثيرةً وهدايا ثمينةً .

كما كان بين أبي طالب والنجاشي من جهةٍ أخرى صداقةٌ قديمةٌ .

فكتب إليه يطلبُ مِنهُ حُسْنَ الجـوارِ ، والمحافظـةَ علـى مَـنْ أتوا إليهِ مهـاجرين خاصـةً وأنَّ ابنَـهُ جعفـراً كـان مـن بـين هـؤلاءِ المهاجرين .

ويدخلُ عمروُ بنُ العـاصِ وعبـد اللهِ بـن أبـي ربيعـة علـى الملك النجاشيِّ بعد أن أوغرا صدورَ بطارقتـه وقساوسـتِهِ ، وقدمـا إليهم الهدايا النفيسةَ ، وطلبا منهم أن يكونوا عوناً لهما عند الملـكِ لتسليمِ المسلمين والعودةِ بهم إلى مكةَ .

فقالا : أيُّها الملكُ ، إنّـه قـد ضـوى إلى بلـدكَ مِنـا غلمـانٌ سفهاءُ فارقوا دينَ قومِهم، ولم يدخلوا في دينِـكَ، وجـاءوا ، بديـنٍ ابتدعوهُ ، لا نعرفه نحنُ ولاأنتَ ، وقـد بعثنـا إليـكَ فيهـم أشـراف

قومِهم من آبائهم وأعمامِهم وعشائرهم لتردهم إليهــم فهــم أعلـى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيهِ .

فقالَ بعضُ حاشيةِ الملكِ : صدقا أيُّها الملـك قومُهـم أعلـى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ليعـودا بهـم إلى بلادهم وقومهم ، فغضب الملــك ، ثـم قـال : لا وا لله لا أسـلمهم إليهما ، ولا يكاد قومٌ جاوروني ونزلوا بلادي ، واختـاروني على من سوايَ حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذانِ في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسـلمتهم إليهمـا ، ورددتهـم إلى قومهـم ، وإن كـانوا على غـير ذلـك منعتهـم منهمـا وأحســنتُ جوارهــم مــا جاوروني .

جعفرُ بنُ أبي طالبٍ أمام النجاشيّ

ثـم أرسـلَ الملـكُ النجاشـيُّ إلى المســلمين يدعوهــم إليــه فانتخبوا جعفراً نائباً عنهم يخاطبُ الملـك بألسـنتهم ، ويمثـل قومـهُ لديـهِ ، فقـال لـه : أيُّهـا الملـك ، كنـا قومـاً أهـل جاهليـةٍ ، نعبــد الأصنـام، ونـأكل الميتـةَ ، ونـأتي الفواحـش ، ونقطــع الأرحــام ، ونسيءُ الجوار ، ويأكل القويُ منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعثَ ا للهُ إلينا رسولاً منا ، نعرف نسـبهُ وصدقـهُ وأمانتـهُ وعفافـهُ، فدعانا إلى ا للهِ لنوقرهُ ونعبدهُ ، ونخلع ما كنا نعبدُ نحنُ وآباؤنـا مـن دونـهِ مـن الحجـارة والأوثـان ، وأمرنـا بصــدق الحديـثِ ، وأداء الأمانـةِ، وصلـةِ الرحـمِ ، وحسـنِ الجـوارِ ، والكـف عــن المحــارم

والدماء ، ونهانا عن الفواحشِ وقولِ الزورِ ، وأكل مال اليتيم، وقذفِ المحصناتِ ، وأمرنا أن نعبدَ ا للهَ وحدهُ لانشركَ به شيئاً، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصّيام ، وعدد عليهِ أمور الإسلام، فصدقناهُ وآمنا بهِ ، واتبعناهُ على ما جاء بهِ من ا للهِ فعبدنا ا لله وحدَهُ فلم نشركْ بهِ أحداً ، وحرمنا ما حرمَ علينا ، وأحللنا ما أحلَ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادةِ الأوثانِ من عبادةِ ا لله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحلُ من الخبائثِ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين دينِنا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارِكَ ، ورجونا أن لا نظلمَ عندكَ أيُّها الملك .

فقال له النجاشيّ : هل معك مما جاء به عن ا لله من شيءٍ ؟

فقال له جعفر : نعم .

فقال له النجاشيُّ : فاقرأهُ عليَّ : فقرأ عليهِ صدراً من أول سورةِ مريم ، فبكى النجاشيُّ حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفتهُ حتى أخضلوا كتبهم حين سمعوا آيات ا لله تعالى تُتلى عليهم .

ثم قال لهم النجاشيُّ : إنَّ هذا والذي جاء بهِ عيسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ .

ثم اتجهَ إلى عمرو بنِ العاصِ وصاحبِهِ ، وقال لهما مخاطباً : انطلقا ، فلا وا للهِ لا أسلمهم إليكما ولا يكادون .

عمرو بنُ العاصِ يوغر صدر النجاشيّ

وحين يئسَ عمرو بنُ العاصِ مـن القبـضِ علـى المهـاجرين لدى سماعِهِ كلام الملك أخذَ سبيل المكر والدهاءِ ، فقال لصحبهِ :

وا لله لآتينَـهُ غـداً فلأخبرنّـه أنّهـم يزعمـونَ أنّ عيسـى بـن مريم عبدٌ ، ثم أتاهُ مـن الصّبـاح ، فقـال لـه : أيُّهـا الملـك ، إنّهـم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عمّا يقولون فيهِ .

فأرسل إليهم فلما دخلوا عليهِ ، قال لهم :

ماذا تقولونَ في عيسى بن مريم ؟

فقال جعفرٌ رضي ا لله عنهُ : نقولُ فيه الذي جاءنا بهِ نبينـا صلى ا لله عليهِ وسلم ، يقول : ((هو عبد الله ورسوله وروحـهُ وكلمتهُ ألقاها إلى مريم العذراء البتول)) .

فضرب النجاشـيُّ بيـدهِ إلى الأرضِ فـأخذَ منهـا عـوداً ثـم قال: وا لله ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هـذا العـود ، أي مقـدار هذا العود يريد أن قولك هذا لم يعدُ عيسى بـن مريـم بمقـدار هـذا العود .

ثم قال الملك للمهاجرين : اذهبوا فأنتم آمنون، من سبكم غَرِمَ ، من سبكم غَرِمَ ، من سبكم غَرِمَ ، ثم قال لهم : ما أحب أنَّ لي جبلاً من ذهبٍ ، وأني آذيتُ رجلاً منكم .

ثم قال لبطارقتِهِ : (ردوا عليهما هداياهُما فلا حاجةَ لي بها ، فو الله ما أخذ الله منّي الرشوةَ حيث ردّ عليَّ ملكي ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناسَ فيَّ فأطيعهمْ فيه) .

ولم يكدْ عمرو بن العاصِ وعبد الله بن أبي ربيعة يسمعان كلام النجاشيّ وتمسكه بالمهاجرين المسلمين حتى سقط في أيديهما، وأحسا بالفشل ، فرجعا إلى مكة يجرّان أذيال الخيبةِ والذل والهزيمة ، ليكون النصر حليف المؤمنين مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى ﴿ إنَّ الله يدافع عن الذين آمنوا إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خوانٍ كفورٍ ﴾ [1] .

ما نزل في النجاشيّ من القرآن

وقد أسلم النجاشيُّ بعد ذلك، وأسلم معه جميع بطارقته وقساوسته، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم قوله :

﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أُنزلَ إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربَّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمعُ أن يُدخِلَنا ربُنا

(١) الآية ٣٨ من سورة الحج .

مع القوم الصالحين، فأثابَهمُ الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاءُ المحسنين ﴾ [1] .

صدق الله العظيم

وبقي المسلمون المهاجرون في الحبشةِ آمنين على أنفسهم ودينهم في جوار ملكٍ حافظ عليهم، وأمّنهم في بلاده، وأحسن جوارهم وأكرَمَ ضيافتهم ليصدُقَ فيه قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لو خرجتم إلى أرضِ الحبشةِ ، فإنَّ بها ملكاً لا يُظلَمُ عنده أحد، وهي أرضُ صدقٍ، حتى يجعلَ الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه)) [2] .

لقد كان عمرو بن العاصِ واحداً من الثلاثة الذين كرهوا الإسلامَ ، وأزعجوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وأتعبوا أصحابَهُ ، وأذاقوهم مرَّ العيشِ وسوء العذابِ لما يحملونه من بغضٍ وحقدٍ وعداوةٍ ، حتى لقد همَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ عليهم ، إذا بالقرآنِ الكريمِ ينزلُ على قلبهِ يأمرُهُ أن يَدَعَ الدعاءَ عليهم ، ويفوضَ أمرهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ الذي بيده مقاليدُ الأمورِ كلّها، وقلوب العبادِ جميعاً في قبضةِ يمينِهِ يحركها كما يشاءُ، ويتصرف بها كما يريدُ .

نزل عليه القرآن ليقولَ لهُ : ﴿ **ليس لك من الأمرِ شيءٌ**

(١) الآيات ٨٢ - ٨٥ من سورة المائدة .

(٢) سيرة ابن هشام بتصرف .

أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهُم فإنّهم ظالمون ﴾ [١] .

فيدركُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله تعالى من علمٍ وذكاءٍ وفطنةٍ وحكمةٍ أنّ هؤلاء في مشيئةِ الله، إما أن يظلوا على كفرِهم فيصيبَهُم العذابُ، وإما أن يلهمَهُمُ التوبةَ، ويهديَهُم إلى الإسلام فتدركَهُمُ الرحمةُ الإلهيةُ، فيفوزوا بعفوهِ و مغفرتِهِ ورضوانِهِ، وقد تجاوزَ عن سيئاتِهِم، و قبل توبتَهم، وبَدَّلَ سيئاتِهِم حسناتٍ، وهو القائل : **﴿إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يُبدّلُ اللهُ سيئاتِهِم حسناتٍ وكان اللهُ غفوراً رحيماً﴾**[٢].

وهو القائل :

﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفرْ لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضَتْ سنةُ الأولين ﴾ [١] .

لقد كان عمرو بن العاصِ أحد الذين أراد الله بهمُ الخير، وأدركتهم الرحمة الإلهية، وأصابتهم العنايةُ الربانيةُ، لينضمَّ إلى ثلةٍ مباركةٍ من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وليتحول بقلبهِ وإيمانهِ ويقينِهِ، بل وبسيفِهِ وذكائِهِ ودهائِهِ إلى طاعةِ اللهِ ورسولِهِ، وليستخدمَ كلّ إمكاناتِهِ في سبيلِ دينه وعقيدتِهِ وليضعها في خدمةِ رسولِهِ وإخوانِهِ .

---

(١) سيرة ابن هشام بتصرف . والآية ١٢٨ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٧٠ من سورة الفرقان. (١) الآية ٣٨ من سورة الأنفال.

وهكذا تحول عمرو رضي ا لله عنه من عدوٍ ماكرٍ، وخصمٍ مبغضٍ متآمرٍ إلى مسلمٍ مؤمنٍ مكافِحٍ ومناضلٍ، وقائدٍ باسلٍ من قوادِ الفتحِ الإسلامي الذين على أكتافِهم، وبجهادِهم، وتحت ظلال سيوفِهم فتحوا الدنيا من مشرقِها إلى مغربِها، ونشروا فيها العدل والحرية والأخوة والمساواة، وأخرجوا الناس من عبادةِ العبادِ، إلى عِبادةِ ا للهِ الواحدِ القهارِ، فجزاهُمُ ا لله خيرَ الجزاء، وأسكنهم فسيحَ جنانِهِ .

عمرو بن العاص والحياة العسكريّة

لابدَّ لعمرو بن العاص رضي ا لله عنه أن يوظِفَ ما أوتي من ذكاءٍ حادٍ، ودهاءٍ عظيمٍ، وفروسيةٍ خارقةٍ لخدمةِ هذا الدين الذي اعتنقهُ واتّبعَهُ وآمن بهِ .

ولابدَّ للخليفة المؤمن أبي بكرٍ الصّديق رضي ا لله عنه أن يستَغِلَ مواهبَ عمروٍ المعنويةَ والعسكَريةَ لأغراضٍ عسكريةٍ تعودُ على الأمة الإسلامية بالخيرِ والنفعِ في الدنيا والآخرة، فيعينهُ قائداً عاماً من قوادِ الفتحِ الإسلامي، عملاً بقولِهِ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قاتِلوا الذين يلونكم من الكفارِ وليجدوا فيكم غِلظةً واعلموا أنَّ اللهَ مع المتقين ﴾ [1] .

وبقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليومِ الآخرِ ﴾ [2] .

(١) الآية ١٢٣ من سورة التوبة . (٢) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

واقتداءً برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الذي أمَرهُ الله تعالى بجهادِ الكفارِ وقتالِهم بنص قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النبيُّ جاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنمُ وبئس المصير ﴾ [1] .

لذلك استهلّ الصديق رضي الله عنه فجرَ خلافته بالجهاد في سبيل اللهِ، وإعلان الحرب على المرتدين، وقتال جميع من رفض دعوة الإسلام .

فشرع رضي الله عنه بتسيير الجيوش إلى أماكنَ متفرقة من جزيرة العرب، وتأمير القادة الأمراء على تلك الجيوش، فكان رضي الله عنه بما أوتي من عقلٍ راجحٍ، وعلمٍ واسعٍ، وذكاءٍ خارقٍ يختارُ من القادة أكفأَهم ، ومن الأمراءِ أنسبهم ، فوقعَ اختيارُهُ على عمرو بن العاصِ الذي وجد فيه الكفاءة والأهلية ليستعملَهُ على صدقاتِ قضاعة .

فقال له : إني كنتُ قد رددتُك على العمل الذي ولاّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم مرةً، وسماه لك أخرى .

وقد أحببتُ أبا عبد الله أن أفرغَكَ لما هو خيرٌ لك في حياتِكَ ومعادِكَ منه ، إلاّ أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك .

فردَّ عليه عمرو بن العاص رضي الله عنه قائلاً: إني سهمٌ

(١) الآية ٧٣ من سورة التوبة .

من سهامِ الإسلام ، وأنت عبدُ الله الرامـي بهـا، والجـامع لها، فانظر أشدَّها وأقواها وأخشاها فارمِ بي فيها .

وخلال هذه الفترة قـدم خـالدُ بـن سـعيدِ بـن العـاص مـن اليمن فدخل المدينةَ وعليه جبةُ ديباجٍ، فلما رآها عمرُ بن الخطـاب رضي الله عنه أمر المسلمين بإحراقِهـا، فغضـب خـالدُ بـن سـعيد، وأخذ يؤلب على عمر ، ويوقع بينـه وبـين علـي بـن أبـي طـالبٍ ، فقال : يا أبا الحسين ، أغلِبتُم يا بني عبدِ منافٍ عنِ الإمرةِ ؟

فقال علي رضي الله عنه : أمغالبةً تراها أم خلافةً ؟

فقال: لا يُغالَبُ على هذا الأمرِ أولى منكم .

فقال له عمرُ رضي الله عنه: اسكتْ فضَّ الله فـاك، والله لا تزالُ كاذباً تخوضُ فيما قلت ثم لا تَضُرُّ إلاّ نفسكَ .

ثم نقلها عمر إلى أبي بكرٍ فلم يتأثر لهـا، ولم يهتـمَّ بهـا، إذ أنَّهُ مشغولٌ بأمرٍ أهـمَّ منهـا، وهـو تسـييرُ الجيـوشِ، وعقـد الألويـةِ للقادة والأمراء .

فلّما جمع الجيوش وأمّرَ عليهم الأمراءَ، قـام فيهـم خطيبـاً، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُهُ ، ثم أخذَ يحـثُّ النـاسَ علـى الجهـادِ في سبيلِ اللهِ .

فقال : ألا لكلِ أمرٍ جوامعُ، فمن بلغهـا فهـي حسـبُهُ [1]،

(١) حسبه : كافيه .

ومنَ عمِلَ للهِ كفاهُ الله، عليكم بالجدِ والقصدِ فإنَّ القصد أبلغُ، ألا إنّهُ لا دينَ لأحدٍ لا إيمان لهُ، ولا إيمانَ لمن لا خشيةَ لهُ، ولا عملَ لمن لا نيةَ له، ألا وإنَّ في كتابِ الله من الثوابِ على الجهادِ في سبيلِ اللهِ لما ينبغي للمسلمِ أن يحبَّ أن يخصَ بهِ، هي النجاةُ التي دلَّ الله عليها، إذ نجّى بها من الخزي، وألحق بها من الكرامةِ .

ثم شرع الصّديقُ رضي الله عنه في توليةِ الأمراءِ وعقدِ الألوية والرايات، وتوجيه كلٍّ أميرٍ إلى جهةٍ، فبعث عمرو بن العاصِ إلى فلسطينَ .

ثم رأى الصّديقُ أنّ المصلحةَ العامةَ للجيشِ وللمسلمين عامةً تقضي أن يسلكَ كلُّ أميرٍ طريقاً غيرَ طريقِ الآخر، وذلك اقتداء بنبي الله يعقوب عليه السلام حين قال لبنيه لما دخلوا مصرَ: ﴿ يا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحدٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ وما أغني عنكم من الله من شيءٍ إن الحكمُ إلاّ لله عليه توكلتُ وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ [1] .

فإذا كان الخليفةُ الصديقُ رضي الله عنه قد اختارهُ لهذه المهمة ، فإنّما اختاره ، وهو يعرفُ من اختار، ذلك أنَّ ثقتَهُ رضي الله عنه كانت مكفولةً لكل من تولى عملاً للنبي صلى الله عليه وسلم من قبلُ، ومات النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو عنه راضٍ، خاصة وأنَّ عمراً كان عاملاً للنبي على جمعِ أموال الصدقةِ حتى

---

(١) الآية ٦٧ من سورة يوسف .

توفاه الله، فلم يشأْ أبو بكر رضي الله عنه أن يعزلَهُ عنها إلاّ برأيهِ ومرضاتِهِ، ذلك أنَّ مبدأه رضي الله عنهُ أن لا يحلَّ عقالاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يعقل عقالاً لم يعقِلْه عليه الصلاة والسلام .

ولما جاءت حروبُ الردةِ التي تعرضنا لذكرها أكثر من مرةٍ، وفي أكثرَ من رسالةٍ كان عمروٌ رضي الله عنه من معارضيها ومناوئيها على موعدٍ، فلما كان عائداً من عُمانَ إلى المدينة ، نزل في طريقهِ ببني عامرٍ، فإذا بزعيمها قُرَّةَ بنِ هبيرةَ يهمُّ بالردة ويقول له : يا عمرو، إنَّ العرب لا تطيبُ لكم نفسَاً بالأتاوة فإن أعفيتموها فستسمعُ لكم و تطيعُ ، وإن أبيتم فلا تجتمعُ عليكم .

فغضب عمروٌ أشدّ الغضبِ ، ولم تأخذهُ في الأمرِ هوادةٌ ، فصاح في وجههِ قائلاً : ويحك !... أكفرتَ يا قرةُ، تخوفُنا بردةِ العربِ؟

فو الله لأوطِئنّ عليك الخيلَ في حَفْشِ أمك (١) .

ثم أصرّ أن ينبئَ الخليفةَ الصديقَ بما سمع من قرةَ فلما جيءَ بالرجلِ مأسوراً ، انطلق عمروٌ يروي ما سمع منه ، حتى إذا ذكر الزكاة صاح به قرةُ : مهلاً يا عمروُ .

فقال عمرو : كلا والله لأخبرنّهُ بجميعِهِ .

---

(١) حفشِ أمك : خباؤها .

عمرو ووقعة اليرموك

من أجل هذه المواقفِ الصُلبةِ والشجاعةِ والغيورةِ على الإسلام استحق عمروٌ رضي الله عنه هذه الثقة ، بل ازداد به الخليفةُ الصديقُ ثقةً وإعجاباً ، فكان جديراً بالولاية وقيادة الجيشِ وإمارتِهِ ، فقد وجهه أبو بكر إلى فلسطين كما تقدم ، وخشي أن يقعَ الخلافُ بينه وبين أبي عبيدة على الرئاسة فقال له وهو يودعهُ : كاتبْ أباعبيدةَ وأنجدهُ إذا أرادك ، ولا تقطعْ أمراً إلا بمشورتهِ .

وكان الصديقُ رضي الله عنه قد أنفذَ أبا عبيدةَ بن الجراح إلى حمصَ، وخالدَ بن الوليدِ إلى العراق، ويزيدَ بن أبي سفيان إلى دمشق ، وشُرَحبيل بنَ حسنةَ إلى وادي الأردن .

فلما اقترب جندُ المسلمين من مواقعهم التي وُجّهوا إليها ، سمعوا بأهبةِ العدو الذي زحف إليهم في جيوشٍ جرّارةٍ تقدر بمائتين وثمانين ألفَ جندي ،وقيل: بمائةٍ وخمسين ألفاً .

فتردد المسلمون ، وتشاوروا وكتبوا إلى عمرو بن العاص وإلى الخليفة يصفون لهما الأمرَ فأتاهم الجوابُ بضرورة اجتماعِ الجيوشِ للقاءِ الرومِ في موقعٍ واحدٍ . وكتب الخليفةُ الصديقُ إلى أمراءِ الجيوشِ بذلك،فبادروا جميعاً لتنفيذِ هذا الأمرِ والاجتماع تحت قيادةٍ واحدةٍ .

وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه يطوي البيداءَ

المترامية لنجدةِ إخوانهِ في الشامِ ، فألفاهم متفرقين لا يجتمعون على قيادةٍ واحدةٍ، فجمعهم تحت قيادتهِ كما أمر الصديقُ حين كتب إليه: أن يستنيبَ على العراقِ ، وأن يتجهَ بمن معه إلى الشام، فإذا وصل إليهم كان هو الأميرَ عليهم، فاستناب المثنى بنَ حارثةَ، وذهب هو في تسعة آلافٍ وخمسمائة إلى الشام .

وفي معركةِ اليرموك كان لعمرو بن العاص شرفُ المشاركةِ والاستبسال، حيثُ أبلى يومئذٍ بلاءً حسناً ، وقاتل قتالاً شديداً، ووقف موقفاً مشهوداً يخطب بالمسلمين ، ويلهب حماسهم ويثير مشاعرهم ويقولُ : أيُّها المسلمون غضوا الأبصارَ، واجثوا على الركب، واشرعوا الرماحَ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطرافَ الأسنةِ، فثبوا وثبة الأسدِ، فو الذي يرضى الصّدق ويثيب عليه ، ويمقتُ الكذبَ ، ويجزي الإحسان إحساناً، لقد سمعتُ أنَّ المسلمين سيفتحونها ...كَفراً ...كَفراً ، وقصراً ... قصراً ، فلا يهولنَّكُم جموعُهُم ولا عددُهم ، فإنّكم لو صدقتموهمُ الشدَّ لتطاير واتطاير أولادِ الحجلِ .

يقول الأديبُ الكبيرُ المرحومُ عباس محمود العقاد : (ويؤخذُ من المصادرِ المختلفةِ أن عمراً قد اشترك في أكثر حروبِ الشام بين دمشقَ وفلسطين، وأن شجاعتهُ فيها جميعاً كانت كِفاءَ دهائهِ وحزمِهِ ، فلم يكن يرضى لنفسهِ مقاماً في الشجاعةِ دون مقامِ أحدٍ من القوادِ أيّاً كان حظهُ من سمعةِ البأسِ و الإقدامِ.

وذكروا في وصفِ وقعةِ اليرموكِ أنَّ الرومَ هجموا في بعضِ حملاتِها بقضّهم وقضيضهم على فريقٍ من المسـلمين، فانكشـف المسـلمون وولى صاحبُ رايتهم، فلحق به خالدُ بنُ الوليد وعمرو بن العـاصِ يتسـابقان لأخذِهـا مـن يـدِهِ، فأخذهـا عمـرو واندفـعَ بهـا يقـاتلُ المتقدمين من الروم حتى كرَّ إليه المسلمون، وتجمعوا حولَهُ ، فـأدبر الرومُ منهزمين) [1] .

وفي أثنـاء المعركـةِ جـاء إلى المسـلمين كتـابُ نعـي الخليفـةِ الصّديق رضي الله عنه، واستخلافِ عمرَ بـن الخطـاب رضـي الله عنه بعده خليفة للمسلمين .

وبقيت ثقةُ الخليفةِ الجديد بعمرو قائمةً، وليستقلَّ بحـروبِ فلسطينَ وماجاورها كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقعة أجنادين

كتـب عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنـه وهـو الخليفـةُ الجديدُ ، إلى عمروِ بنِ العاصِ يأمرهُ بالتوجهِ إلى إيليـاء،وهـي بيـتُ المقدسِ لمناجزةِ الرومِ فيها .

فسار عمروٌ بجيشِهِ ، وعلى ميمنتِهِ ابنُهُ عبدُ الله بنُ عمـروٍ وعلى ميسرتِهِ جنادةُ بنُ تميمٍ المالكي ، ومعه شرحبيلُ بنُ حسنة .

استخلف شـرجيلُ علـى الأردن أبـا الأعـورِ السـلمي ،

(١) عمرو بن العاص ... للعقاد .

فلما وصلَ عمروٌ بجيشِهِ إلى الرملةِ فوجئ بجمع كبيرٍ من الروم، وعليهم قائدٌ جبارٌ وعنيد يقال له : الأرطبون ... هكذا في العربيةِ الأرطبون ، وفي لغةِ الرومان أريطيون ، وكان أرطبون هذا أكثرَ الرومان دهاءً وأشدّهم مكراً، وأوسعهم حيلةً .

فكان قد وضع جيشاً كبيراً بالرملةِ ، وجيشاً آخرَ مثلَهُ ببيت المقدسِ فكتب عمرو إلى الخليفةِ عمرَ يخبره بذلك ، فلما جاء كتابُ عمرو إلى عمرَ قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج .

وكان عمرو قد بعث علقمةَ بنَ حكيمٍ الفارسي ، ومسروقَ بنَ بلالٍ العكي لقتال أهل بيتِ المقدسِ . وأبا أيوبَ المالكي إلى الرملةِ ليشغلَ بمن معه الرومَ عن عمرو وجيشهِ . فكان عمرو كلما قدم عليه إمدادٌ من عمرَ بعث منهم طائفةً إلى هؤلاء، وطائفة إلى هؤلاء، وأقام عمرو على أجنادين ، لا يقدر من الأرطبونِ على سقطته ، ولا تفي رسلُهُ إلى أرطبونَ بالغرضِ، فقرر أن يذهبَ بنفسِهِ إلى مقابلتِهِ على أنه رسولٌ من الأميرِ عمروٍ فدخل عليه كأنّه رسولٌ ، وجلس معه وقتاً طويلاً ، دار خلاله بينهما حوارٌ طويلٌ أدهش الأرطبون ، وجعله في حيرةٍ من أمرِهِ، فقال في نفسِهِ : وا لله إنّ هذا لعُمرُو ، أو إنّه الرجل الذي يأخذُ عمروٌ برأيِهِ ، وما كنتُ لأصيبَ القومَ بأمرٍ هو أعظم من قتلِهِ .

فدعا أحدَ حراسِهِ الأمناء وسارَّهُ بقتلِهِ ، فقال له : اذهبْ

فقم في مكان كذا وكذا ، فإذا مرَّ بك فاقتله .

ولكنَّ عمراً بما أوتيَ من دهاءٍ وفطانةٍ تنبَّهَ للأمرِ ، ولاحظَ كأنّ شيئاً غيرَ عادي يحدثُ، فقال للأرطبونِ : أيُّها الأميرُ ، إني قد سمعتُ كلامَكَ ، وسمعتَ كلامي ، وإني واحدٌ من عشرةٍ بعثنا عمرُ بنُ الخطابِ لنكونَ مع هذا الوالي لنشهد أمورَه - يقصدُ نفسَهُ – وقد أحببتُ أن آتيك بهم ليسمعوا كلامَك، ويروا ما رأيتُ .

فقال الأرطبونُ : نعم ، فاذهبْ فأتِني بهم ، ودعا رجلاً فقال له : اذهب إلى فلانٍ فرُدَّهُ – يقصدُ الحارسَ الذي تآمرَ معه على قتلِ عمروٍ – .

فقام عمروٌ فذهب إلى جيشِهِ ، ثم تحقق الأرطبونُ أنّه عمرُ ابنُ العاصِ فقال : خدعني الرجلُ، هذا واللهِ أدهى العربِ .

ولقد بلغت هذه الحادثةُ أميرَ المؤمنين عمرَ رضي الله عنه فقال: لله درُّ عمروٍ.

ولقد ذكر المرحومُ العقادُ هذهِ الحادثةَ بصيغةٍ أخرى، وذكر أنّها لم تحدث مع الأرطبونِ وعمرو، إنّما حدثت مع عمرو ابن العاص في غزةَ بعد فتح قيساريةَ ، والذي ذكره ابن كثير في البداية والنهاية أن فتح قيسارية لم يكن على يد عمرو بن العاص ، وإنما كان على يد معاوية بن أبي سفيان وقد روى ذلك ابن كثير عن ابن جرير الطبري .

قال : قال ابن جرير : وفي هذه السنة أمّر عمرُ معاوية بن أبي سفيان على قيسارية وكتب إليه : أما بعد :

فقد ولّيتُكَ قيساريةَ ، فسرْ إليها، واستنصرِ الله عليهم، وأكثِرْ من قولِ لا حولَ ولا قوةَ إلاّ با للهِ العلي العظيمِ، الله ربُنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصيرُ .

قال : فسار إليها فحاصرها ، وزاحفه أهلُها مراتٍ عديدةً ، وكان آخرها وقعةً أن قاتلوا قتالاً عظيماً ، وصمَّمَ عليهم معاوية ، واجتهد في القتالِ حتى فتح الله عليه ، فما انفصل الحال حتى قتل منهم نحواً من ثمانين ألفاً، ثم كمل العددَ إلى مائةِ ألفٍ من الذين انهزموا عنِ المعركةِ، هذا كلامُ ابنِ كثيرٍ نقلاً عن ابنِ جريرٍ الطبري ، وقد رأيتَ عزيزي القارئَ الكريم أنه لم يردْ ذكرُ عمروٍ ابنِ العاصِ في هذا النصِ أبداً كما أنه لم يَردْ ذكرُهُ حتى في فتحِ قيساريةَ .

وقد ذكر المرحومُ العقادُ هذه الحادثةَ كما سيأتي للتنويه بذكاءِ عمروٍ وجرأتِهِ ودهائِهِ ، فقال :

((واتفقتِ المصادرُ على التنويهِ ببلاءِ عمرو في هذه الغزواتِ، فوضح منها جميعاً أنه لم يكن يألو ذلك العملَ الجُسامَ الذي وُكِلَ إليه جهداً من شجاعتِهِ ولا من تدبيرِهِ ، وربّما جشّمته مواردُ التدبير مخاطرَ لم يتجشّمْها في مواردِ القتال...!

من أمثلةِ ذلك ما رواه ابنُ الكلبي حيث قال :

((لما فتح عمرو بـن العـاص قيسـاريةَ ، سـار حتـى نـزل غزةَ، فبعثَ إليه عِلجُها أن ابعث إليَّ رجلاً من أصحابكَ أكلمُهُ)).

ففكر عمروٌ وقال: ما لهذا أحدٌ غيري، وخرج حتى دخـل على العلجِ فكلمه، فسمع كلاماً لم يسمعْ قط مثلَهُ .

فقال العلجُ: حدثني، هل في أصحابكَ أحدٌ مثلُك؟

قال: لا تسألْ عن هذا، إني هينٌ عليهم إذ بعثوا بي إليك، وعرضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي .

فأمر له بجائزةٍ وكســوةٍ، وبعـث إلى البـواب: إذا مـرّ بـك فاضربْ عنقَهُ وخُذْ ما معه .

فخـرج عمـروٌ، فمـرَّ برجـلٍ مـن نصـارى غسـانَ فعرفَـهُ. فقال: يا عمرو، قد أحسنتَ الدخولَ فأحسِنِ الخروجَ .

ففطِنَ عمروٌ لما أراده ، ورجع فقـال لـه العلـجُ : مـا ردّكَ إلينا ؟

قال: نظرتُ فيما أعطيتني فلم أجدْ ذلك يسعُ بـني عمـي، فـأردتُ أن آتيـكَ بعشـرةٍ منهـم تعطيهـم هــذه العطيــة، فيكـونُ معروفُكَ عند عشرةٍ خيراً من أن يكون عند واحدٍ .

فقال: صدقتَ، اعجِـلْ بهـم، وبعـث إلى البـوابِ أن خـلِّ سبيلهُ ، فخرج عمروٌ وهو يتلفتُ،حتى إذا أمِنَ قال: لا عـدتُ إلى مثلِها أبداً .

فلما صالحهُ عمروٌ ودخل عليه العلجُ قال له: أنتَ هو ؟

قال :نعم، على ما كان من غدرِكَ ......ا.٥.) .

وسواء وقعت هذه الحادثةُ مع عمروٍ والأرطبون في أجنادين ،أو مع عمروٍ والعلجِ الروماني في غزةَ، على اختلافٍ في الروايات فإنا نأخذُ منها جانباً من جوانبِ عظمةِ عمروٍ وفدائيتِهِ وذكائِهِ ودهائِهِ وجرأتِهِ وشجاعتِهِ، وكلُّها من الصفاتِ التي اشتُهِرَ بها عمرو بن العاصِ رضي الله عنهُ ، وصارت علماً له، وجعلت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبهرُ به، ويزداد به ثقةً وإعجاباً، ويقول في دهشةٍ واستغراب : لا ينبغي أن يمشي أبو عبد الله على الأرض إلاَّ أميراً، وهو الذي يقول حين يسمعُ رجلاً يلجلجُ في كلامِهِ : خالقُ هذا وخالقُ عمروٍ واحدٌ .

وهو الذي يقول عنه : رمينا أرطبون الرومِ بأرطبونِ العربِ .

يقصد أنَّ كل واحدٍ منهما أدهى من الآخر، وقد تبين أنَّ دهاء عمروٍ فاق كثيراً دهاء الأرطبون، حين استطاع أن يخرج من مؤامرةِ القتلِ كما تخرجُ الشعرةُ من العجينِ، ولم ينتبه له الأرطبون.

القتال

وبعد هذهِ المواقف وتبادل أطراف الحديث وتعرف كلٍّ أميرٍ على دهاء صاحبِهِ كان القتال بأجنادين قوياً وشديداً ، وصفه المؤرخون كقتال يوم اليرموك ، حتى كثرتِ القتلى من الفريقين

فكتب الأرطبون إلى عمرو يقول له : إنّكَ صديقي ونظيري، وأنتَ في قومكَ مثلـي في قومـي، وا للهِ لا تفتـحُ مـن فلسـطين شـيئاً بعـد أجنادين، فارجع ولا تُغرَّ فتلقى مثل ما لقي الذين قبلك من الهزيمةِ.
فدعا عمروٌ رجلاً يتكلم بالروميةِ، فبعثهُ إلى أرطبون وقال: اسمع ما يقولُ لك ثم ارجع فأخبرني: وكتب إليه معه: جاءني كتابُكَ وأنت نظيري ومثلي في قومِكَ، لو أخطأتُكَ خصلةً تجاهلتَ فضيلـتي وقـد علمتَ أني صاحِبُ فتحِ هذه البلادِ واقرأ كتابي هـذا بمحضـرٍ مـن أصحابِكَ ووزرائِكَ .

فلمـا وصلَـهُ الكتـابُ جمـع وزراءَهُ وقـرأ عليهـمُ الكتــابَ فقالوا للأرطبونِ: من أيـن علمـت بأنّـهُ ليـس بصـاحبِ فتـحِ هـذه البلادِ؟

فقـال : صاحبُهـا رجـلٌ اسمُـهُ علـى ثلاثـةِ أحـرفٍ فرجــع الرسولُ إلى عمرو فأخبرهُ بما قال فكتب عمـروٌ إلى عمـرَ يسـتمِدُهُ ويقول له: إني أعالِجُ حرباً كؤوداً صدوماً، وبـلاداً ادخِـرَتْ لـك، فرأيَكَ، فلما وصل الكتابُ إلى عمرَ علم أنَّ عمراً لم يقل ذلـك إلاَّ لأمرٍ علمهُ، فعزمَ عمرُ على الدخولِ إلى الشامِ لفتحِ بيتِ المقدسِ .

وقد تقدم تفصيلُ فتحِ بيتِ المقدسِ في ترجمةِ أبي عبيدةَ بـنِ الجراحِ رضي ا للهُ عنهُ .

والذي يعنينا هنا أن المسلمين بقيادة أبي عبيدةَ بنِ الجـراحِ ومشاركة عمرو بن العاص قـد حـاصروا بيـتَ المقـدسِ، وشـددوا

حصارهم عليها حتى يئس الأرطبونُ من المقاومةِ، ففر منها إلى مصرَ فكان بها حتى فتحها عمروٌ رضي ا لله عنهُ .

ثم فرَّ إلى البحرِ فكان يجتمع ببعضِ السرايا من الروم الذين كانوا يقاتلون المسلمين، حتى التقى به رجل من المسلمين، من قيسٍ في إحدى المعارك، فدارت بينهما معركةٌ قويةٌ انتهت بقطعِ يدِ القيسي ثم استطاع هذا الأخير قتلِ أرطبونَ ، وحين قتله أنشدَ يقولُ فخراً :

فإن يكون أرطبون الروم أفسدها　　فإن فيها بحمدِ اللهِ منتفعا
وإن يكن أرطبونُ الرومِ قطَّعها　　فقد تركتُ بها أوصالَهُ قِطَعا

حلم عمرو بفتح مصر

ما إن انتهتْ حروبُ الشام ، وفُتحَ بيتُ المقدسِ، واستقرتِ الأمورُ، وفرَّ أرطبونُ إلى مصرَ، حتى تطلعَتْ نفسُ عمروٍ إلى فتح جديدٍ، فهو الفارسُ الفاتحُ، والقائدُ الطموحُ ، وصاحبُ الأمال الكبيرةِ في الولايةِ والإمارةِ، ولكن أنَّى له ذلك والخليفةُ الفاروقُ رضي ا لله عنه لم يفكرْ بعدُ في الوقتِ الحاضرِ بفتحِ مصرَ، ومِصرُ هي حلمُ عمروٍ ومبتغاهُ، وأملهُ في الإمارةِ، وهو قادرٌ على اقناع عمرَ بهذا الفتحِ ، ذلك أنَّ عمراً بفطنتِهِ وذكائِهِ وتطلعِهِ إلى الإمارةِ أدركَ أنَّ فتح مِصرَ قدرٌ مقدورٌ لابدَّ منهُ، فالإسلامُ فتح الجزيرةَ العربيةَ بأجمعها وبسطَ نفوذهُ عليها، وقهرَ

الفرسَ في العراقِ وتسلم مفاتيحَ المدائنِ ، ودانت لهُ جميعُ أقطارِهِ، وكذلك استطاع الإسلامُ أن يدحرَ الرومانَ في الشامِ، ويطردَ هرقلَ من دمشقَ ومروجِها الخضراءِ، ويحمل عصاهُ ويرتحلَ عنها إلى غيرِ رجعةٍ .

إذن وبعد هذا التقييم السياسي والعسكري رأى عمرو بنُ العاصِ أنّهُ لم يبقَ أمام المسلمين منافسٌ في المنطقةِ سوى الرومانِ في مِصرَ، وقد كُسِرتْ شوكتهم في الشامِ، فلا بدَّ من الإجهازِ عليهم في مِصرَ .

كما أنَّهُ عاد بفكرهِ الثاقبُ إلى ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم منذ سنين من مراسلةِ (المقوقسِ) عظيم القبط يدعوهِ إلى الإسلامِ حيث بعثَ إليهِ بهذا الكتابِ :

من محمدٍ عبدِ الله ورسولِهِ إلى المقوقيسِ عظيم القبطِ :
سلامٌ على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوكَ بدعايةِ الإسلامِ .
أسلِمْ تسلمْ يؤتيكَ الله أجركَ مرتين فإن توليت فإنما عليك إثمُ القبطِ :

﴿ يا أهل الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولانشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دونِ الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾ (١) .

يذكرُ عمروٌ تماماً كيف ردَّ المقوقسِ على النبي صلى الله

(١) . الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

عليه وسلم رداً فيه أمل كبير بتلبيةِ دعوتِهِ ، أو عدمِ جحودها ، أو رفضها والإباءِ عنها، يقول المقوقسُ :

فهمتُ ما تدعو إليه ، وقد علمتُ أنَّ نبياً بقيَ ، وقد كنتُ أظنُّ أنَّهُ يخرجُ من الشامِ إلى أن قال : وقد أكرمتُ رُسُلكَ ، وبعثتُ إليكَ بجاريتين لهما مقامٌ في القبطِ عظيمٌ ، وبكسوةٍ، وأهديتُ إليك بغلةً لتركبها.والسلام .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لصحابتِهِ الكرام جازماً: ستفتحون مصرَ، وهي أرضٌ فيها القيراطُ، فاستوصوا بأهلِها خيراً، فإن لهم ذمةً ورَحِماً.

ذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان قد تزوجَ إحدى الجاريتين المذكورين ، وهي ماريةُ القبطيةُ ، وأنجبتْ لهُ ولدَهُ إبراهيمَ الذي تُوفي صغيراً ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم معبراً عن حزنِهِ العميق :

إنَّ القلبَ ليحزنُ ، وإنَّ العينَ لتدمعُ ، وإنا على فراقِكَ يا إبراهيمُ لمحزونون ، ولا نقولُ ما يغضِبُ الربَّ .

ثمَّ أكدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا الفتحَ حين قال لصاحبته مرّةً أخرى :

إذا فتح الله عليكم مصرَ فاتخِذوا بها جنداً كثيفاً ، فذلك الجندُ خيرُ أجنادِ الأرضِ .

فقال أبو بكرٍ الصّديقُ رضي الله عنه : ولِمَ يا رسولَ الله؟

قال عليه الصلاةُ والسلامُ : لأنّهم وأزواجَهم في رباطٍ إلى يومِ القيامة .

لذلك أصبح المسلمون جميعاً على يقينٍ من هذا الفتحِ، وكذلك عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه، لكنّهُ في الوقتِ الحاضِرِ لا يفكرُ بهذا الفتحِ إلاَّ إذا جاء الخطرُ من قِبلِ مصرَ، أو كان الروم فيها عقبةً كؤوداً في سبيلِ نشرِ الدينِ الإسلامي .

وبالتالي فإنَّ عمر لا يستطيعُ إن يخاطِرَ الآن بحياةِ المسلمين ومستقبلِ دينهم ، أو يجازفَ بالدولةِ الناهضةِ الفتيةِ .

وهنا يجيءُ الجوابُ من عمروٍ ضربةَ لازب فقد أصبح الرومانُ عقبةً كؤوداً، ومن المحتملِ أن يشكلوا خطراً حقيقياً على المسلمين، فهذا الأرطبونُ، أو أريطيونُ قد فرَّ إلى مِصرَ هارباً من أجنادين خوفاً من الوقوعِ بين أيدي المسلمين، وأخذ يجمعُ الجموعَ لمقابلتهم وصدِهم عن دخولِ مصرَ، وإن عمراً ليعلمُ حرصَ الفاروقِ عمرَ على حياةِ المسلمين أن يُسفَكَ دمُ واحدٍ منهم، أو تتعرضَ حياةُ أحدِهم للخطرِ أو يقعوا في عدوان محذورٍ .

إذن فإنَّ غزوَ مصرَ الآن دفعٌ للخطرِ المتوقعِ ، وضمانٌ لمستقبلِ المسلمين .

كما أنَّ عمراً ليعلمُ أيضاً وضعَ أعدائِه، وهو الذي شاركَ في حروبِ الشامِ ، وسمع بانتِصاراتِ المسلمين في العراقِ ، وأدرك تماماً أن جيوشَ المسلمين على قلتِها، قد انتصرت على الفرسِ على

كثرةِ عَدَدِها وعُدَدِها ، وفتحت معظمَ مدنِهم ولا تزالُ تنتصرُ وتفتحُ، كما دَحَرتْ الرومانَ وقهرتهم، وطردت ملكهم هرقلَ وهو في أوجِ مجدِهِ وعزّ سلطانِهِ ، أفلا تستطيعُ أن تنتصرَ عليه وهو مهيضٌ بعد ما لحقه من هزائمَ منكرةٍ في الشامِ وفلسطينَ، وقد شاخَ وهرمَ ومرض وغامَتْ على عقلِهِ الوساوسُ ، وفقد كلَّ أملٍ في النصرِ أو البقاء ، وأصبح من الموتِ كقاب قوسين أو أدنى .

فلا بدَّ إذن من غزوِ مصرَ لدرءِ خطرِ أرطبون والجيوشِ الرومانية التي إذا ما فكرت بالكرِ على الشامِ فإن المسلمين فيها وفي الحجازِ أيضاً سيكونون في خطرٍ مؤكدٍ ، وإنّما يمكنُ القضاءُ على هذا الخطرِ قبل استفحالِهِ وذلك بضربِ الرومانِ ضربةً قاصمةً، والقضاءِ عليهم قبل أن يفكروا بغزوِ الشامِ وفلسطينَ، أو على الأقل بمنعِ مدد الجندِ والمالِ والطعامِ لتلك الدولةِ المتداعيةِ، لتصبحَ عاجزةً من أن تشكّل خطراً على المسلمين في الشّامِ وفلسطينَ .

التوجهُ إلى مِصرَ

ولم يكدْ عمرُ يستمعُ لرأي الداهيةِ عمروٍ حتى استجاد رأيَهُ واستصوبَهُ وأيدَهُ بضرورةِ غزوِ مِصرَ في الحالِ، فأذِنَ له في المسيرِ .

وانطلق عمروٌ بجيشِهِ المؤمنِ متوجهاً إلى مِصرَ، وهو على

أملٍ كبيرٍ بنصرِ اللهِ وتأييدِهِ، وراح يقودُ جيشاً مُلِئَتْ قلوبُ أفرادِهِ بالعزةِ والكرامةِ، وسَرتْ في نفوسِهم روحُ الإخلاصِ والإيمانِ، وطويَتْ لهمُ الأرضُ طياً حتى أصبحوا على مشارفِ مِصرَ .

وكان الفاروقُ عمرُ رضي الله عنه قد أمدَّ عمراً بجنودٍ على رأسِهم الزبيرُ بنُ العَوام، وفي صحبتِهِ بشرُ بنُ أرطاة ، وخارجةُ بنُ حذافةَ ، وعميرُ بنُ وهبٍ الجمحيُّ .

واجتمع هؤلاء الأمراءُ جميعاً على بابِ مِصرَ، فلقيهم جاثليقُ مِصرَ ويقال له : أبو مريم، ومعه الأسقف أبو مريام، وقد بعثهُ المقوقسُ صاحِبُ الإسكندريةِ ليكون ردءاً لأبي مريمَ في حمايةِ مصرَ والدفاعِ عنها ، فلما تصافّوا للقتالِ ناداهم عمرو وطلب منهم أن يبرُزَ إليه أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلادِ، فبرزا إليه، فقال لهما : أنتما راهبا هذهِ البلادِ، فاسمعا ... إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحقِ ، وأمرنا به ، وأمرنا به محمدٌ صلى الله عليه وسلم، وأدّى إلينا كلَّ الذي أُمِرَ به، ثم مضى وتركنا على الواضحةِ، وكان مما أمرَنَا به الإنذارُ إلى الناسِ، فنحن ندعوكم إلى الإسلامِ، فمن أجابنا إليه فمثلُنا، ومن لم يُجبنا عرضنا عليه الجزيةَ، وبذلنا له المنعةَ [1] ، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم حفظاً لرحِمِنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمةً إلى ذمةٍ .

---

(١) المنعة : الحماية .

ومما عهد إلينا أميرُنا ، استوصوا بالقبطيين خيراً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيراً، لأنَّ لهم رَحِماً وذمةً .

فقالوا : قرابةٌ بعيدةٌ لا يصلُ إلى مثلها إلاَّ الأنبياء معروفةً شريفةً ، كانت ابنة ملِكنا ، وكانت من أهلِ منف والملكُ فيهم، فأُديل َعليهم أهلُ عينِ شمسٍ فقتلوهم وسلبوهم ملكَهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيمَ عليه السلامُ مرحباً به وأهلاً .

أُمِّنَّا حتى نرجع إليك .

فقال عمروٌ : إنَّ مثلي لا يُخدَعُ، ولكني أُؤجلكما ثلاثاً لتنظروا، ولتناظرا قومكما، وإلاّ ناجزتُكم .

قالا : زِدْنا ؟

فزادهم يوماً ، فقالا: زِدْنا ؟

فزادهم يوماً .

فرجعا إلى المقوقس ، فأبى أرطبونُ أن يجيبهما ، وأمر القومَ بالقتالِ .

فقال أبو مريم وأبو مريام لأهلِ مِصرَ: أمّا نحن فسنجتهدُ أن ندفعَ عنكم ولا نرجعَ إليهم، وقد بقيَتْ أربعةُ أيامٍ .

فأشار عليهم أرطبونُ بأن يقاتلوا المسلمين .

فقال الملأ منهم : ما تقاتلون من قومٍ قتلوا كِسرى وقيصرَ وغلبوهم على بلادِهم .

فتح مصر

كان أريطيونُ عنيداً جداً، وبقي مصراً على موقفه و هو قتال المسلمين ، فكان كما أراد .

و كان قتالاً دامياً لم يظفر القبطيون من المسلمين بشيء، بل قُتِلَ منهم عددٌ كبيرٌ، وفي إحدى المعارك قُتِل أريطيونُ كما تقدمَ .

وحاصر المسلمون عينَ شمسٍ وارتقى الزبيرُ بنُ العوّامِ عليهم سور البلدِ، فلما رأوا هذه الشجاعةَ التي لم يسبقْ لهم أن رأوا مثلها، وعلموا أن المسلمين مصرون على الفتح ودخول البلد خرجوا إلى عمروٍ من الباب الآخر فصالحوه، ولم يكفّ الزبيرُ عن القتال، بل استمر في قتالِهِ حتى خرج من البابِ الذي عليه عمروٌ، فرأى القبطيين يفاوضون عمراً على الصلح .

كتاب الصلح

وتمَّ الصلحُ، وتوقفَ القتالُ، وكتب لهم عمروُ بنُ العاصِ كتابَ أمانٍ هذا نصُّهُ :

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمروُ بنُ العاصِ أهل مصرَ من الأمانِ على أنفسِهِم و ملتِهِم و أموالِهِم و كنائسِهِم وصُلُبِهِم و برِهِم و بحرِهِم ، لا يدخلُ عليهم شيءٌ من ذلك ولا يُنتَقَصُ .

وعلى أهلِ مصرَ أن يعطوا الجزيـةَ إذا اجتمعـوا علـى هـذا الصلح وانتهت زيادة نهرهِم خمسين ألفَ ألفٍ، فإن أبى أحد منهـم أن يجيبَ رفع عنهم من الجزاء بقدرهِم ، وذمتُنا ممن أبى بريئةٌ .

وإن نقص نهرهم من غايته رُفِعَ عنهم بقدرِ ذلك .

ومن دخل في صلحِهم من الرومِ و النوبةِ فله مثل ما لَهم، وعليه مثلُ ما عليهم .

ومن أبى واختار الذهابَ فهو آمنٌ حتـى يبلـغ مأمنَـهُ ، أو يخرجَ من سلطانِنا ، عليهم ما عليهـم أثلاثـاً ، في كـلٍّ ثلـثٍ جبايـةُ ثلثِ ما عليهم .

على ما في هذا الكتابِ عهـد الله، وذمـةُ رسـولهِ ، وذمـة الخليفةِ أميرِ المؤمنين ، وذمم المؤمنين .

وعلى النوبةِ الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكـذا رأساً، وكذا وكذا فرساً على أن لا يُغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرةٍ ولا واردةٍ .

شهد على ذلك أكابرُ الصحابةِ ، منهـم الزبـيرُ بـنُ العـوامِ رضي الله عنه ، ودخل في ذلك جميعُ أهلِ مِصـرَ، وقبلـوا الصلـحَ، واجتمعتِ الخيولُ بِمصرَ ، وأمرَ عمروٌ ببناء الفسطاطِ فبُنِيَ .

وجاء أبو مريَمَ وأبو مريامَ يكلمانِ عمـراً في السـبايا الـتي أُصيبت بعد المعركةِ فأبى عمروٌ أن يردَها عليهما ، وأمر بطردِهِمـا وإخراجِهما من بين يديهِ .

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين عمرَ رضي الله عنه أمر أنّ كلَّ سبيٍ أُخِذَ في الخمسةِ أيامِ التي أمنوهم فيها أن تُرَدَّ عليهم ، وكلَّ سبيٍ أُخِذَ ممن لم يقاتِلْ ، وكذلك من قاتلَ فلا يُرَدُّ عليهِ سباياهُ .

وهناك روايةٌ تقولُ : إنّهُ أمره أن يُخيرهُم بين الإسلامِ، وبين أن يرجع إلى أهلهِ ، فمن اختارَ الإسلامَ فلا يردوهُ إليهم، ومن اختارهم ردّوه عليهم وأخذوا منه الجزيةَ .

ففعل عمروٌ ما أمر به أميرُ المؤمنين عمرُ، فأمر بجمعِ السبايا ، فخيرهم ، فمنهم من اختار الإسلامَ ، ومنهم من عاد إلى دينهِ .

فتح الإسكندرية

ثم توجهَ عمروٌ بجيشِهِ إلى الإسكندرية فحاصرها، وكان المقوقس قبل ذلك يؤدي خراج الإسكندرية ومِصرَ جميعاً إلى الرومِ، فلما حاصره المسلمون جمع أساقفتَهُ وأكابرَ دولتِهِ، و بدأ يأخذُ آراءَهم حول الوضع العسكري الراهنِ، إنهم يؤدون خراج مصر إلى الرومان، و هؤلاء همُ العربُ المسلمون يحاصرونهم مصرين على الفتح، و قد أضحى الرومانُ رجلاً ضعيفاً مريضاً لا يستطيعُ الدفاعَ عن نفسِهِ، فضلاً أن يدافعَ عن المصريين، فقال المقوقسُ لمستشاريه : إن هؤلاء العربَ غلبوا كسرى و قيصرَ

وأزالوهم عن ملكِهِم و لا طاقةَ لنا بهم، والرأيُ عنـدي أن نـؤديَ الجزيةَ إليهم، ثم بعث إلى عمروٍ يقول له :

إني كنتُ أؤدي الخراجَ إلى من هو أبغضُ إليَّ منكم، و قد رأيتُ أن أؤديها إليكم ...

و هنا يردُ سؤالٌ لا بدَّ من الإجابةِ عليه، و هو كيف جـاز لهذا المقوقـس أن يصـالحَ المسـلمين، و يفتـحَ هـم البلـدَ،ويسـلَمُهم مقاليدَ الأمورِ بهذهِ البساطةِ؟ فهـو إمـا ضعيـفٌ جبـانٌ، وإمّـا نهّـاز فرص، يحرصُ على مصلحتِهِ ، ويحافظ عليها حيث وجـد إلى ذلـك سبيلاً .

يقول الأستاذ العقادُ رحمه الله تعالى ... وهو يتحدثُ عـنِ التناقضِ القائم بمصـرَ في تلـك المرحلـةِ:(وقـد نستغني عـن تعـداد شواهده الكثيرةِ إذا أضفنا إلى ما أسلفنا تناقضاً آخرَ نختمُ بـه هـذهِ الملاحظةَ التي لابدَّ منها، وهو التنـاقضُ الـذي أحـاط باسـمِ الـوالي الروماني الذي تلقى العربَ ثم صالحهم على تسليمِ البلادِ .

فمن هو هذا المقوقس ؟ وما حقيقةُ الأمرِ فيهِ ؟

أهو رومانيٌّ أو مصريٌّ؟ وهل هو من رجالِ الحربِ أو من رجالِ الدينِ ؟ وهل كان محبوباً في شعبه أو كان مُبغضاً إليهِ ؟

قيلَتْ جميـعُ هـذهِ الأقـوالِ فيمـا كتبـهُ العـربُ والرومـانُ، ولكنهُ في أرجحِ الأقوالِ رجلٌ من غيرِ الرومِ ، ومن غـيرِ المصريـين الأُصـلاءِ الأقدمـين ، تـولى مـن قِبَـلِ هرقـلَ سـلطاناً دينياً مقرونـاً

بسلطانِ الدنيا ومضى في سياستِهِ على سُـنّةِ النّهـازين للفـرصِ مـن خدامِ الدولةِ المتداعيةِ ، فأغلظ للشـعبِ الضعيـفِ مرضـاةً للسـادةِ الأقوياءِ، ثم بدا له أن سادتَهُ الأقوياء ذاهبـون، فـأحبَّ أن يسـتقلّ بكرسيّهِ وأن يأوي إلى جناحِ الفاتحين لعلهم يشكرون لـه صنيعَـهُ ، ويحمونهُ من أعدائِهِ في مصرَ والقسطنطينية .

ويتابعُ العقادُ قائلاً :

(ذلك هو أقلُ الغرائبِ في وصفِ هـذا الرجـلِ الغريـبِ ، ولكنَّهُ على ذلك ليس بـالوصفِ القـاطعِ الوثيـقِ، وأوثـقُ مـا يقـالُ عنهُ: إنَّهُ رجلٌ كان يرهنُ مصيرَهُ بمصيرِ البلدِ الذي أقام فيهِ .)[1].

هذا أجمل مـا قيـل في تقييـم الموقـفِ، ووصـفِ المقوقـسِ ، وبيانِ السببِ الذي دعاهُ إلى فتحِ البلدِ وتسليمِها للعربِ المسـلمين الفاتحين .

كما أنَّ ثمّةَ سبباً آخر دعـاهُ إلى المصالحـةِ والتسـليمِ، وهـو كرهُ القبطِ المصريين للرومِ المحتلين، وهذا الكره ثابتٌ لا جدالَ فيـهِ ولاشكَّ ولا مراءَ .

فالعداءُ قـائمٌ بسـببِ الخـلافِ بـين المذهـبِ الملكـي، وهـو مذهـبُ الرومـان، والمذهـبُ اليعقوبـي، وهـو مذهـبُ الأقبـاطِ المصريين، وهذا الخلافُ بـين المذهبـين لم يـدَعْ مكانـاً للتوفيـقِ بـين الكنيستين، ولم يُبقِ في النفوسِ مجالاً للقربِ أو الرحمةِ أو التسـامح،

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد .

حتى استفحلَ الخلافُ بينهما، وتحولَ إلى عداءٍ حقيقي تمثل في تعذيبِ الرومانِ للقبطِ، وتقطيعِ أيديهم وأرجلِهم، والتمثيلِ فيهم بصورةٍ بشعةٍ لا تعرفُ معنى الرحمةِ والإنسانيةِ، في حينِ أن المصريين سمعوا بعدالةِ المسلمين ورحمتِهم، ونظرتِهم إلى الشعوبِ الأخرى نظرة رحمةٍ وتسامحٍ وإنسانيةٍ، بل لقد لمس بعضهم ذلك بنفسِهِ، ورآهُ رأي العين، وعلم علمَ اليقين أن الإسلامَ دينُ رحمةٍ وأُخوةٍ وعدالةٍ وإنسانيةٍ .

من أجلِ هذهِ الأمورِ مجتمعةً أقدم المقوقِس بعد أن استشار معاونيه وأصحابَ الرأي عنده على الصلحِ، وتسليمِ البلادِ لقومٍ يحبون الأمنَ والسلامَ ، ويريدون الخيرَ والوئامَ لجميعِ الناسِ، ولذلك قال بعضُ المفكرين : ما عرف العالمُ فاتحاً أرحمَ من العربِ .

ودخلَ عمروُ بنُ العاصِ مصرَ، وتسلمَ مقاليدَ الأمورِ، وثبتَ أركانَ الدولةِ ، وأقامَ فيها العدالةَ ، ورسخ فيها الحكمَ القائمَ على العدالةِ الاجتماعية ، وعدم التفريقِ بين الناسِ، أو التمييزِ بين مسلمٍ وذمي، وكان يرى أنّه دخل مصرَ فاتِحاً، ولم يدخلْها صلحاً، وفي ذلك يقولُ: (قعدتُ مقعدي هذا وما لأحدٍ من قبطِ مصرَ عليَّ عهدٌ ولا عقدٌ، إن شئتُ قتلتُ ,إن شئتُ خّمستُ، وإن شئتُ بعتُ) ، ولكنّه لم يفعلْ هذا، ولا ذاك، فعامل الرعيةَ في أمورِ دينِها ودنياها معاملةً على غايةٍ من الرحمةِ والعدالةِ،

رضيتها الرعيةُ جميعاً مسلمين وأهلَ ذمةٍ، وأطلقتَ ثناءَها، وعبّرت عن حبِها وثقتِها وولائِها لهذا الحاكمِ العادلِ، وجعلت البطرق بنيامين يسمي عهدَ العربِ المسلمين بعهدِ السلامةِ والأمانِ، وعهدَ الرومانِ بعهدِ الجورِ والطغيانِ .

(وكان بنيامين هذا مبعَداً عن مكانِ الرئاسةِ الدينيةِ لمخالفتِهِ مذهبَ الكنيسةِ الملكيةِ، فاستقدمه عمرو، واحتفى به وردّه إلى مكانِهِ) (١) .

وجاء في بعضِ الروايات أن المسلمين حين حاصروا الإسكندريةِ جعل كثيرٌ من المسلمين يفرّون ، فجعل عمروٌ يشجعهم ويحثُهم على الثباتِ .

فقال رجلٌ من أهلِ اليمنِ: إنّا لم نخلَقْ من حجارةٍ ولا حديدٍ !

فقال له عمروٌ : اسكت ، فإنّما أنتَ كلبٌ .

فقال له الرجلُ : فأنتَ أميرُ الكلابِ، فأعرضَ عنه عمروٌ ولم يردَّ عليه خشيةَ أن تدبَ الفوضى في صفوفِ المسلمين ، أو يصيبهم وهنٌ وضعفٌ .

وتابعَ عمروٌ نداءَ هُ لأصحابِهِ ، حتى اجتمعوا عليه ، فقال هم وهو يشجعهم: تقدموا فبكم ينصرُ ا للهُ المسلمين .

---

(١) عمرو بن العاص للعقاد .

فسرت إلى نفوسهم روحُ الإقدامِ والاستبسالِ حتى فتح الله عليهم ، ونصرَهم نصراً مؤزّراً .وقد قيل : إنّ الحصارَ دام ثلاثةَ ، وإنّ المقوقسَ طلب من عمروٍ أن يهادنَهُ ، فلم يقبلْ ، وقال له : قد علمتم ما فعلنا بملِكِكُمِ الأكبرِ هرقلَ .

فقال المقوقسَ وقد نظر إلى أصحابِهِ : صدق فنحن أحقُ بالإذعانِ .

وتمَّ الصلح كما تقدم .

التوغلُ في مِصرَ

وتابع عمروٌ فتوحاته وانتصاراتِهِ ، ومضى إلى العريشِ عن طريقِ الساحلِ، فلم يجدْ بها أحداً يقفُ أمامه من الرومانِ .

ثم تقدم إلى الفرما فحاصرَ حاميتَها واستولى عليها في أقلَّ من شهرين، ثم مضى في طريقِهِ حتى نزل بلبيسَ فهزم بها جيشاً رومانياً يُقدِرُهُ بعضُ المؤرخين بثلاثةِ أضعافِ الجيشِ العربي.

وانقضَّ من ناحيةِ الصّحراءِ على أم دنين فاستولى عليها، وجاوزها إلى حصنِ بابليون، أو قصر الشمعِ كما سماهُ العربُ ، على الضفةِ الشرقيةِ من النيلِ .

واختلفوا فيمن كان يقودُ حاميَتهُ .

فقال أناسٌ: إنّهُ جورج، أو الأعيرج كما سماهُ العربُ.

وقال أناسٌ : إنّهُ هو ثيودور الذي نازل العربَ غيرَ مرّةٍ.

وقال غيرهم: إنَّهُ هو أريطيون صاحبُ عمروٍ القديم [1] .

وقد رويَ أن المسلمين قالوا لأهلِ الإسكندريةِ: ما أحسنَ بلدَكم !

فقالوا : إنَّ إسكندرَ لما بناها قال: لأَبنيَنَّ مدينةً فقيرةً إلى اللهِ، غنيةً عن الناسِ .

فبقيت بهجتُها .

وقالوا لأهلِ الفرما: ما أقبحَ مدينتَكُم ؟

فقالوا : إنَّ الفرما - وهو أخو الإسكندر- لَّما بناها قال:لأبنيَنَّ مدينةً غنيةً عن اللهِ، فقيرةً إلى الناسِ .

فهي لايزالُ ساقطاً بناؤها، فشوهَتْ بذلك ... واللهُ أعلمُ.

ويتابعُ القائدُ عمروٌ طريقَ النصرِ والفتحِ مؤيداً بنصرِ اللهِ وتوفيقهِ ، حتى وصل إلى جوارِ منف وهي عاصمةُ الفراعنةِ، فطوقها وعرض على حاكِمِها شروطَهُ، وهي: الإسلامُ أو الجزيةُ، أو السيفُ .

ولقد سلك في ذلك مسلكاً أدبياً إنسانياً للتأثيرِ في نفوسِ أفرادِ الحاميةِ من الرومانِ، وما يلوذُ بهم من أهلِ البلادِ.

كان إذا جاءه الرسلُ من قبلِ الرومانِ أبقاهم بين جنودِهِ يوماً أو يومين ليروا بأعينِهم زهدَ المسلمين في الدُّنيا، واستخفافهم

---

(١) المرجع السابق .

بالموتِ، وصبرَهم على الشدائدِ، وإقدامَهُم على الكريهةِ في سبيلِ ما هم مؤمنون به وقادمون إليهِ، وهذا أسلوبٌ على غايةِ من الفطنةِ والذكاءِ في استمالةِ قلوبِ هؤلاءِ الرُّسلِ إلى الإسلامِ، خاصةً إذا ما جلسوا مع المسلمين وكلموهم، وعلموا سماحتَهم وأخلاقَهم، وحُسْنَ تعامِلِهم .

بناءُ مدينةِ الفسطاط

فتح عمروُ بن العاصِ رضي الله عنه الإسكندريةَ، فرأى بيوتَها وبناءَها مفروغاً منها، فهمَّ أن يسكنها وقال: مساكنُ قد كُفيناها، وكتب إلى عمرَ يستأذِنُهُ في ذلك، فسأل عمرُ رسولَ عمروٍ: هل يحولُ بيني وبين المسلمين ماءٌ ؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين ، إذا جرى النيلُ .

فكتبَ عمرُ إلى عمروٍ: لا أحبُّ أن تنزلَ المسلمين منزلاً يحولُ الماءُ بيني وبينهم في شتاءٍ ولا في صيفٍ .

فتحوّلَ عمروٌ من الإسكندريةِ إلى الفسطاطِ فاختطّها وأسكنها المسلمين.

وإنّما سُميتْ ديارُ مِصرَ بالفسطاطِ نسبةً إلى فسطاطِ عمرو بن العاصِ وذلك حين نصب خيمَتَهُ، والخيمةُ الفسطاطُ موضعَ مِصرَ، فكان يجلسُ فيها .

وحين همَّ بالتوجُهِ لفتحِ الإسكندريةِ، أمرَ بنزعِ فسطاطِهِ، فإذا فيهِ يمامٌ قد فرَّخَ، فقال عمروٌ : لقد تحرّمَ منا بمتحرّم، فأمر به

وأُقِرَّ كما هو .

فلمَّا رجع المسلمون من الإسكندرية وقالوا : أين ننزل .

فقال بعضُهُمُ : الفسطاط ، لفسطاطِ عمروٍ الذي خلّفَهُ ، فنزلوا حولَهُ ، وبنوا مساكنهم ، ثم أمرَ عمروٌ برفعِهِ ، وبنى موضعه مسجداً وهو المنسوبُ إليهِ اليومَ، وهو مسجدُ عمروِ بنِ العاصِ رضي الله عنهُ .

وكان الفسطاطُ مضروباً بموضعِ الدارِ التي تُعرفُ بدارِ الحصى عند دارِ عمروٍ الصّغيرة [1] .

وللمرحومِ العقادِ هنا كلامٌ جميلٌ أحببتُ أن ، أنقلَهُ إليكَ عزيزي القارئ .

يقولُ العقادُ : وبنى مدينةَ الفسطاطِ حول مسجدِهِ المعروفِ باسمِهِ إلى اليومِ .

وإذا صحَّ ما قيل في سببِ تسميتها بالفسطاط، فقد بقي عمرو الشاعِرُ يقظان الحسِّ والخيالِ تحت آكام السياسةِ وأنقاضِ الحروبِ.

قيل : إنّهُ أراد أن يقوّضَ فسطاطَهُ فرأى يمامةً قد باضت في أعلاه، فقال: لقد تحرَّمَتْ بجوارِنا، وأمر الجندَ أن يقروا الفسطاط حتى تطيرَ فراخُها، فبقي حتى بنيتِ المدينةُ في مكانِهِ وسُميتْ بالفسطاطِ .

---

(١) عمرو بن العاصِ ...... للعقادِ.

أو لعلَّ السياسيَّ هنا كان أيقظَ من الشاعِرِ، لأن حمايةَ يمامةٍ وديعةٍ في جوارِ والٍ هي أجدى لهُ من البأسِ والرهبةِ في استمالةِ القلوبِ العصيةِ إلى الحمايةِ الغريبةِ التي فُرِضَتْ عليها [1] .

قصةُ نيلِ مِصرَ

لما افتتحت مصرُ أتى أهلها إلى الأميرِ عمرو بنِ العاصِ، وذلك حين دخل شهرٌ يعتقدُ المصريون أن ماءَ النيلِ لا يجري بدخول ذلك الشهرِ، فقالوا: أيُّها الأميرُ، إنَّ لنيلنا هذا سُنّةً لا يجري إلاَّ بها...

قال : وما ذاك ؟

قالوا : إذا كانت اثنتا عشرة ليلةَ خَلَتْ من هذا الشهرِ عمدنا إلى جاريةٍ بكرٍ من أبويها، فأرضيناهما، وجعلنا عليها من الحلي والثيابِ أفضلَ ما يكونُ، ثم ألقيناها في هذا النيلِ .

ويقالُ على الأرجحِ : إنّها دميةٌ من الطينِ على هيئةِ فتاةٍ تمثلُ الأرضَ الزراعيةَ التي يتزوجُ بها النيلُ ، أو يثمر منها ثمراتِهِ .

فلما سمع عمروٌ هذهِ القصةَ الخرافيةَ، وأنَّ أهلَ مِصرَ يعتمدون عليها لاستدرارِ ماءِ النيلِ، أرادَ أن يصحح العقائدَ وينزعَ منهم مفهومَ الاعتمادِ على وسائلَ خرافيةٍ لا صحةَ لها ولا حقيقةَ لوجودِها .

---

(١) عمرو بن العاصِ ...... للعقادِ.

قال لهـم : إنَّ هـذا مما لا يكـونُ في الإسـلامِ، إنَّ الإسـلامَ يهدمُ ما قبله .

فأقاموا ينتظرون ثلاثةَ أشـهرٍ وهـي عندهـم: بؤنـةُ وأبيـبُ ومسرى ، كلُّ هذا والنيلُ لا يجري قليـلاً ولا كثيراً، حتـى همّـوا بالجلاءِ عن أرضهم لعدمِ وجـودِ الماءِ، والحيـاةُ إنّمـا توجـدُ حيـثُ يوجدُ الماءُ .

فـأرادَ عمـروٌ أن يسـتعينَ بمشـورةِ أمـيرِ المؤمنـين عمـرَ، ويستأنسَ برأيِهِ ، فكتب إليهِ بذلك .

فرد عليهِ عمـرُ مصوبـاً رأيَـهُ ، ومؤيـداً لـه مـا قـال لأهـلِ مِصرَ، فقال: إنّك قد أصبتَ بالذي فعلتَ ، وإني قـد بعثـتُ إليـك بطاقةً داخِلَ كتابي هذا، فألقِها في النيلِ .

فلما قدمَ كتابُ أمير المؤمنـين عمـر أخـذ عمـروٌ البطاقـةَ، فإذا بها :

من عبدِ ا للهِ أميرِ المؤمنين ، إلى نيلِ أهلِ مِصرَ... أمّا بعد :

فإن كنتَ إنما تجري من قبلك ، ومن أمـركَ فـلا تجـرِ، فـلا حاجةَ لنا فيكَ، وإن كنت إنّما تجري بأمرِ ا للهِ الواحدِ القهارِ، وهو الذي يجريكَ فنسألُ ا للهَ تعالى أن يجريكَ.

فألقى عمروٌ البطاقةَ في النيلِ فـأصبحوا يـوم السـبتِ وقـد أجرى ا للهُ ماءَ النيلِ ستةَ عشرَ ذراعـاً في ليلـةٍ واحـدةٍ، وقطـع ا للهُ تلك السُنّةَ عن أهلِ مِصـرَ، وأبطـلَ الخرافـةَ والوهـمَ اللذَيـنِ كـان

المصريون يعملون بهما، ويعتقدون أصلَهما وتأثيرَهمـا، ورسّخَ في نفوسِهم العقيدة الصحيحةَ ، عقيدةَ الإيمانِ با للهِ تعالى، واحدٌ أحدٌ، مريدٌ فعّالٌ، مدبرٌ مختـارٌ، قـادرٌ لا يُعجـزُهُ شـيءٌ في السّـماءِ ولا في الأرضِ، إنّما أمرهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كن فيكون.

عمرو بن العاص وإمارةُ مصرَ

فتح عمروُ بنُ العاصِ رضي ا لله عنهُ مصرَ، وأصبـحَ واليـاً عليها مدةَ خلافةِ عمر، وأرسى قواعِـدَ الحكـمِ فيهـا، فكـان مثـالَ الأميرِ العادلِ، وذلك بفضلِ ا للهِ تعـالى، وتوجيهـاتِ أمـيرِ المؤمنـين عمرَ رضـي ا لله عنـه، فهـو يحـترمُ عمـرَ، وعمـرُ جديـرٌ بالاحـترامِ والتوقـيرِ والتبجيـلِ، فكـان دائمـاً يـزودهُ بنصائِحـهِ وتوجيهاتِـهِ وإرشاداتِهِ، وعمروٌ الذي طالما كان يراودهُ حلمُ الرئاسةِ والإمـارةِ، ويبني آمالاً كبيرةً تمنى تحقيقهـا والوصـول إليهـا، وهـو جديـرٌ بهـا وأهلٌ لها . هاهو ذا الآن وقد حقق هذا الحلـمَ البعيـدَ، ووصـلَ إلى أملِهِ المنشودِ . لا بدَّ أن يحافظَ عليهِ، ويتمسك به ما استطاع، وهو معروفٌ بالذكاءِ والفطنةِ والألمعيةِ ، يعلمُ عمرَ ويعرفُهُ تمام المعرفـةِ، يعلمُ حزمَهُ وصرامتَهُ، يعلمُ حدَّتَهُ وعدالتَهُ، يعلمُ حرصَهُ على إقامـةِ العدلِ والمساواةِ بين الرعيةِ .

يعلمُ سهَرهُ على راحتِهم وتفقدِ أحوالِهم .

يعلمُ أنَّ عمرَ رضي ا لله عنه يدركُ تماماً أنَّ أيَّ خطأ يحصلُ

في دولتِهِ، أو أي غلطٍ يرتكبُهُ والٍ من ولاتِهِ فإنَّ الله تعالى سوف يسألُ عنهُ اثنين عمرَ أولاً، وصاحِبَ الغلطِ ثانياً.

وإذا ما حدثَ مثلُ هذا، أو قصّرَ والٍ من الولاةِ في أمرٍ ما عمداً أو سهواً فإنَّ أميرَ المؤمنين عمرَ لن يرحَمَهُ أبداً، ولن يغفرَ لـه خطأَهُ ، أو يتجاوزَ عن غلطِهِ أو هفوتِهِ .

بل سوف يحاسبُهُ حساباً عسيراً، وقـد يعاقبُـهُ بـالضربِ أو السجنِ على مرأىً ومسمعٍ من المسلمين، كما حدث لأبي هريرةَ، وقدامةَ بن مظعونٍ وغيرهما، أو علـى الأقـلِ يقصيـهِ عـن منصبِـهِ، وهذا أمرٌ لا يُرضـي عمراً، إنَّ عمـراً يعلـم كـلَّ هـذا عـن عمـر، ويدركُهُ تمامَ الإدراكِ، لذلك كان مجتهداً أشدَّ الاجتهـادِ ، ومحتاطـاً كل الحيطـةِ أن لايقـعَ في خطأٍ، أو يحـدث في إمارتِـهِ تقصـيرٌ و إلا تعرَّضَ للعقابِ الأليمِ .

ولكـن الإنسـانَ بمـا جبـلَ عليـه مـن ضعـفٍ لا يسـتطيعُ الإحاطةَ بجميعِ الأمورِ، إذ الإحاطةُ بها جميعاً أمرٌ شاقٌ و عسيرٌ .

كما أن الإنسانَ مهما كان حذراً ومتيقظاً، قد تصدرُ عنـه هفـوةٌ، أو تحصـلُ منـه زلـةٌ بـأمرٍ قـاهرٍ، أو خـارجٍ عـن إرادتِـهِ و تدبيرِهِ،وهذا ما حصل لعمروٍ فعلاً .

وذلـك حـين أجـرى الخيـلَ ، فـأقبلت فـرسٌ لرجـلٍ مـن المصريين ، فحسبها محمد بن عمروٍ بـنِ العـاصِ فرسَـهُ ، وصـاح : فرسي وربِ الكعبةِ .

ولما اقتربت تبين أنها ليست فرسَهُ، إنما هي لرجلٍ مصري، فغضب محمدُ بنُ عمـرو ، ووثـب علـى المصـري يضربُـهُ بالسـوطِ ويقولُ له: خذها وأنا ابنُ الأكرمين . وبلغ الخبرُ عمـراً فخشـي أن يشكوهما المصري إلى الفاروقِ عمرَ، فحبسه عمر زمناً .

و لما أُفلِتَ قدم إلى الفاروقِ يرفعُ إليه مظلمتَهُ ، ويشرح له ما حدث معهُ .

فأرسل الفـاروقُ يسـتقدمُ عمـراً وابنَـهُ ليقـول للمصـري: دونَكَ الدرةَ فاضربْ بهـا ابـنَ الأكرمـين ، ففعـلَ ، ثـم قـال لـه : أَجِلْها على صلعةِ عمرو ، فو الله ما ضربك إلاَّ بفضلِ سلطانِهِ .

فخشي عمروٌ أن يُضرَبَ فعلاً. وهـو أمـام مـلأٍ مـن كبـارِ الصّحابةِ أن يضربَهُ رجلٌ من رعاياه ، ومن أهلِ الذمةِ ...!

فاعتذر المصري قائلاً: قد ضربتُ مَنْ ضربني .

فقال له عمرُ: أما والله لو ضربتَـهُ مـا حُلنـا بينـكَ وبينـهُ، حتى تكون أنتَ الذي تدعُهُ .

ثم التفتَ إلى عمرو ، وقال له تلك المقولةَ المشهورةَ والـتي تُعدُّ من جلائِلِ الأعمالِ، وتشهدُ بعظمـةِ الفـاروقِ عمـر وعدالتِـهِ، وسماحةِ هذا الدينِ العظيم :

أيا عمـرو، متـى استعبدتُمْ النـاسَ وقـد وَلَدتهـم أمهـاتُهم أحراراً ...؟...!

يقول الأستاذُ العقـاد رحمه الله تعـالى وهـو يتحـدثُ عـن

محاسبةِ الفاروقِ عمروَ بنَ العاصِ عن هذهِ الحادثةِ وغيرِها:

(ولقد حاسبهُ على إعفاءِ ابنه- أي ابن الخليفة-كما حاسبه على إعفاءِ ابنهُ هو من الجزاءِ الذي استحقهُ بالعدوانِ على بعضِ رعاياه، فقد ذهب عبد الرحمن بن عمرَ بنِ الخطابِ إلى عمروٍ يبلغُهُ أنّهُ شرب مسكراً، ويطلُبُ إليه أن يقيمَ عليهِ الحدَّ .

فتغاضى قليلاً، ثم أذن بحدِهِ على أن يُعفى من حلقِ رأسِهِ على مشهدٍ من العامةِ .

فجاءهُ التأنيبُ من الخليفةِ مع البريدِ يقولُ فيه : عجبتُ لك يا ابن العاصِ ولجرأتِكَ عليَّ وخلافِ عهدي .

فما أراني إلاَّ عازلك ومسيئاً عزلك ، تضربُ عبدَ الرحمن في بيتِكَ وتحلِقُ رأسَهُ في بيتِكَ ، وقد عرفتَ أن هذا يُخالفني ...!

إنّما عبدُ الرحمن رجلٌ من رعيتِكَ ، تصنعُ به ما تصنعُ بغيرِهِ من المسلمين .

وإن والياً ينجو من الفاروقِ بهذا القسطِ من الحِسابِ على هذه المسائِلِ وأشباهِها (لمجدودٍ) بين الولاةِ) [1] .

وصفُ أرضِ مصرَ

روي أنَّ أمير المؤمنين عمرَ رضي ا لله عنه طلب من عمرو أن يصفَ له أرضَ مصرَ ... فكتب إليه يقول :

(١) عمرو بن العاصِ ... للعقاد . مجدود : محظوظ .

إنّ مصرَ تربـةٌ غـبراءُ ، وشـجرة خضـراء ، ظلوهـا شـهر وعرضها عشر يكنفها جبل أغبر ، ورملٌ أعفرُ، يخطُ وسـطها نهـرٌ ميمونُ الغـدواتِ، مبـاركُ الروحـاتِ، يجـري بالزيـادةِ والنقصـانِ، كجري الشمس والقمر، لهُ أوانٌ تظهرُ به عيونُ الأرضِ وينابيعُها، حتى إذا عجَّ عجاجَـهُ، وتعـاظمتْ أمواجُـهُ لم يكـنْ وصـولُ بعـضِ القرى إلى بعضٍ إلاَّ في خفافِ القواربِ ، وصِغارِ المراكِبِ .

فإذا تكاملَ في زيادتِهِ نكص على عقبِهِ ، كأولِ ما بـدأ في شدتِهِ ، وكما في حِدَتِهِ .

فعِندَ ذلك يخـرجُ القـومُ ليحرثـوا بطـونَ أوديتِـهَ وروابيـه، يبذرون الحبَّ ، ويرجونَ الثمارَ من الرّبِ .

حتى إذا أشرقَ وأشرفَ، سقاه من فوقِهِ النّدى، وغذاه من تحتِهِ الثرى، فعند ذلك يدرّ حلابُهُ ، ويغني ذبابُهُ.

فبينما هي يا أمير المؤمنين ، ورقةٌ بيضـاءٌ ، إذا هـي عنـبرةٌ سوداءُ، وإذا هي زبرجدةٌ خضراءُ .

فتعـالى ا للهُ الفعّـالُ لمـا يشـاءُ، والـذي يصلـحُ هـذه البـلادَ وينمّيها ألاَّ يقبلَ قولَ خسيسها في رئيسِها، وألاَّ يتأدّى خراجُ ثمـرةٍ إلاَّ في أوانِهـا، وأن يصـرِفَ ثلـث ارتفاعِهـا في عمـلِ جسـورِها وتِرعِها، فإذا تقررَ الحالُ مـع العمـالِ في هـذهِ الأحـوالِ، تضـاعف ارتفاعُ المال .

وا للهُ تعالى يوفقُ في المبتدأ والمآلِ.

يقولُ الأستاذُ العقادُ معلقاً على هذا الوصفِ :

((فإن لم يكنْ هذا الكلامُ من نصِّ كلامِهِ، فهو من صميم رأيه وعيانِهِ لا مراءَ". والذي لا خِلاف فيهِ أن الفـاروقَ تلقّى منه وصفاً لِمصرَ يُشبهُ هذا الوصفَ، ودليلاً على الدرايةِ بما يُشبهُ هذا الدليلِ، وأنَّ عمراً أخلقُ الناسِ أن يحـذرَ في عهـدِ الفـاروقِ (سعيَ الخسيسِ بالرئيسِ) وهو الذي يعلمُ أنّهُ مستهدفٌ لمثلِ هذا السعي، وأنّهُ ملاقٍ به شيئاً من القلقِ الدائمِ في ساحةِ الفاروق، وهو الذي كان يتعصبُ للنسبِ تعصبَ المأخوذِ بالريبِ ويتقي كلمةَ السفلةِ فيقولُ : إنَّ ذهابَ ألفٍ من العليةِ أهونُ ضرراً من ارتفاعِ واحدٍ من السفلةِ)) [1] .

وعلى العمومِ فإنَّ هذا رأيُهُ، وهو يُعبرُ فيه عن وجهةِ نَظرِهِ الشخصيةِ، ولكننا لا نستطيعُ أن نوافقهُ على هذا الرأيِ من وجهةِ نَظرٍ إسلاميةٍ عملاً بالقاعدةِ الثابتةِ المأخوذةِ من قولِهِ تعالى :

﴿ إنَّ أكرمكم عند اللهِ أتقاكم ﴾ [2] .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ مدفوعٍ بالأبوابِ، لو أقسمَ على اللهِ لأبَرَّهُ)) .

كما أننا لا نستطيع أن نقتنعَ بوجهةِ نظرِهِ في بعضِ المواقفِ، لكننا لا نستطيعُ بالتالي أن ننكر دورَهُ كصحابيٍّ جليلٍ،

(١) المرجع السابق .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

جاهدَ وفتحَ، وبذلَ وأعطى، وضحَّى وناضلَ في سبيلِ دينِه، والعقيدةِ التي آمن بها وجاهدَ في سبيلِ ا لله من أجلِ حمايتِها والدفاعِ عنها، فكان من المجاهدين في سبيلِ ا لله، والمرابطين على حدودِ الدولةِ الإسلاميةِ المتراميةِ الأطرافِ، العاملين بقولِ ا للهِ تباركَ وتعالى :

﴿ انفروا خفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالِكم وأنفسِكم في سبيلِ الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [1] .

خلافةُ عثمانَ رضي الله عنهُ

خمسُ سنواتٍ وعمرو بن العاصِ أميرٌ على مِصرَ، إلى أن توفى الفاروقُ عمرُ رضي ا للهُ عنهُ ليذهبَ إلى لقاءِ ربّهِ عزَّ وجلَّ راضياً مرضياً، وانتهتِ الخلافةُ إلى عثمانَ بن عفان رضي ا لله عنه لتتغيرَ سياسةُ الدولةِ بتغيّرِ سياسةِ الخليفةِ الجديدِ، وذلك كان تحولاً سريعاً ومفاجئاً، فالحزمُ والصرامةُ، والقوةُ والصلابةُ تحولت إلى ضعفٍ ولين، ورقةٍ في العاطفةِ، وإرهافٍ في النفسِ والشخصيةِ، الأمرُ الذي جعلَ الحُسّادَ والطامعين وأصحاب المصالحِ الشخصيةِ يتزلّفون إلى الخليفةِ الجديدِ، ويتقربونَ منهُ، ويثبتونَ أقدامَهُم عنده، ليبدؤوا بإحاكةِ المؤامراتِ، وإثارةِ الشبهاتِ حول عمروِ بنِ العاصِ لدى عثمان لزعزعةِ الثقةِ بهِ ، والتشكيك بأمانتِهِ ونزاهتِهِ .

---

(١) الآية ٤١ من سورة التوبة .

حدثَ كلُّ هذا وعمروٌ في دارِ إمارتِـهِ لا يـدري مـا يـدورُ حولَهُ من شبهاتٍ، وما يُحاكَ ضدَّه من مؤامراتٍ، فقدم إلى المدينـةِ لمبايعةِ عثمان، ولتقديـمِ الـولاءِ والطاعـةِ، وعـرضِ شـؤونِ ولايتـهِ وإمارتِهِ ، وكان مساعدَهُ في ولايةِ الصعيدِ عبدُ الله بنُ أبي سرح .

وكان عمروٌ غيرَ مطمئنٍ لوجـودِ ابـنِ أبـي سـرحٍ معـه في مِصرَ، إذ أنّهُ يرى فيهِ منافِساً حقيقياً في ولايةِ مِصـرَ كلّهـا، لذلـك طلب من عثمانَ عزلَ عبدِ اللهِ بن أبي سرحٍ وإقصاءَهُ عن مِصرَ.

ولكن هذا الطلبَ قوبِلَ من عثمانَ بالرفضِ، واقترح علـى عمروٍ أن يتولى شؤونَ الحربِ ، ويترِكَ لابنِ أبي سرحٍ أمرَ الخراجِ. فرفضَ عمروٌ هذه المشـاركةَ ، وطلـب أن يسـتقلَّ وحـده بشـؤون مِصرَ كلّها ، وقال : إني إذن كمن يـأخذُ البقـرةَ بقرنيهـا ليحلبهـا غيرهُ .

فأصرَّ عثمانُ على موقِفِهِ الرافضِ لطلبِ عمـروٍ، وتمسـكِهِ باقتراحِهِ السابِقِ، ولعـلَّ السـببَ في ذلِـكَ أنَّ عثمـان كـان يسـيءُ الظنَّ بعمروٍ، وكان يرى فيه طمعاً في جمعِ المالِ، وتمسكاً بالإمـارةِ، وتطلعاً للخلافةِ ، فهو إذن منافسٌ سياسيٌّ، كما أنَّهُ قائدٌ عسـكريٌّ يُحسَبُ له حسابٌ .

أضف إلى ذلك حَسدَ الحسادِ ، ووشايةَ الوشاةِ من حاشيةِ عثمانَ كمعاويةَ بنِ أبي سفيان، ومروانَ بن الحكمِ وغيرِهِما الذيـن استطاعوا أن يقنعوا عثمان بأن عمراً يشـكلُ عليـهِ خطـراً إن بقـي

والياً على مصرَ وثبت أقدامَهُ فيهـا، واسـتقل وحـده بحكمِهـا، ولا غرابةَ بعد ذلك أن يطمعَ بالخلافةِ، وهاهو ذا الآن يطلبُ منه عزلَ عبدِ اللهِ بنِ أبي سرحٍ عن صعيدِ مِصرَ ليستقلَ بها وحدَهُ .

هذا مـا أُثيرَ حـولَ عمـروٍ مـن شـبهاتٍ ، ليجعـلَ موقفَهُ ضعيفاً مهزوزاً أمام الخليفةِ الجديدِ، بل وليصبحَ على خطرٍ حقيقي، يمكن بين لحظةٍ وأخرى أن يُعفى من جميعِ مسـؤولياتِهِ ، وأن يُجـرّدَ من مناصِبهِ ليصبحَ فرداً عادياً من أفرادِ المسـلمين مجـرداً مـن كـلِّ مسؤوليةٍ وصفةٍ ولقبٍ .

عزلُ عمروٍ عن إمارةِ مصرَ

هـذا ولا يـزالُ حُسّـادُ عمـروٍ يتـآمرون عليـه، ويوغـرون صدر الخليفـةِ عثمـان لعزلـهِ وتجريـدِهِ مـن مناصبـهِ، ويجيئـون إليـه بالوشايةِ حيناً، والتشكيك بكفاءتـه حينـاً حتـى انتهـت محـاولاتُهم بإقالة عمرِ بنِ العاصِ و تعيينِ عبدِ اللهِ بنِ أبي سرحٍ بديلاً عنه على ولايةِ مِصرَ حربِها وخراجِها حكماً وإمارةً .

فعبدُ اللهِ بنُ أبـي سـرحٍ قريـبُ هـؤلاءِ، وأخٌ لعثمـانَ مـن الرضاعـةِ، وهـو في رأيهـم كـفءٌ للرئاسـةِ والإمـارةِ، و جديـرٌ بالسياسةِ و الإدارةِ، فلْيكنْ هو أميراً على مصرَ، و والياً عليها بعـد عمروٍ .

ولعلّ السببَ في عزلِ عمروٍ عن مصرَ ما حدث مـن أهـلِ

الإسكندريةِ من نقضِ العهدِ، حيث إن الرومَ جاءهم عددٌ كبيرٌ عن طريقِ البحرِ بقيادةِ منويل الخمي ، فنقضوا عهدَهم مع عمرو، وطمعوا في النصرِ، وظنوا أنهم سيتغلبون عليه، ولكن لا يحيقُ المكرُ السيئ إلاَّ بأهلِهِ ، وعلى الباغي تدور الدوائر، فغزاهم عمروٌ وانتصر عليهم و قتل منهم مقتلةً عظيمةً ، وسبى وغَنِمَ أموالاً كثيرةً .

فلم يصحَّ عند الخليفةِ عثمانَ نقض العهدِ من قِبَلِ الرومِ، و اعتبرها ذريعةً تذرَّعَ بها عمروٌ للقتلِ والسبي، فأمره بِرَدِ ما سبى وغنِمَ، وأمر بعزلِهِ ، فاعتزلَ عمروٌ في ناحيةٍ من فلسطين .

لم يتلَّقَ عمروٌ نبأ عزلِه بالرضا والقبولِ، ولم يظهر منه حنقٌ ولا غضب بل كان يبدو هادئاً، طبيعياً، منبسط الأساريرِ، بينما هو في الحقيقةِ يدافعُ حزناً عميقاً، وألماً ممضاً، وثورةً عارمةً تريدُ أن تظهرَ على وجهِهِ، وتنطلق على لسانِهِ، فكان يقاومُ ذلك بكلِّ مرارةٍ، ويخفيه في نفسِهِ ، ويطويهِ في قلبِهِ ، ويتكلفُ من التجلّدِ والتصبّرِ ما لابدَّ منه ، ويُفوضُ النتائجَ للمقاديرِ تتصرفُ كما تشاءُ، وتحكمُ كما تريدُ .

ولقد اتهَمهُ البعضُ بأنّهُ أضمر للخليفةِ عثمانَ العداوةَ، وبيّتَ له الشّر والمكيدةَ، وراح يتآمرُ عليه بالليلِ والنهارِ، ويحرضُ عليه الرائحَ والغادي، ويؤلبُ عليه القاصي والداني ، بينما هو مطمئنٌ في عزلتِهِ، آمنٌ في سربِهِ ، يتلقى الركبانَ ، ويأخذُ منهم

الأنباءَ ، حتى قدمَ عليه راكبٌ من المدينةِ فاستخبره عن عثمانَ .

فأخبره أنّه محصورٌ في بيتِهِ ، والمصريون حريصون على قتلِهِ ، ثم مرَّ به راكبٌ آخرُ، فسألَهُ ؟

فأخبرَهُ أنَّ عثمانَ قد قُتِلَ .

فنادى كما ذكر رواةُ هذا الخبرِ : أنا أبو عبدِ اللهِ إذا نكأت قرحةً أدميتُها[1] .

ثم يروون أنه قال : فو اللهِ كنتُ ألقى الراعيَ فأحرضُهُ على قتلِ عثمانَ .

وسواءٌ أصحَّ هذا الخبرُ أم لم يصحَّ ، وما إخالُ أنّه يصحُّ، لأنه خبرٌ يدلُ على ما في قلوبِ ناقليه منَ كراهيةٍ لشخصِ عمروٍ خاصةً، وتشكيك بعدالةِ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وطعنٍ بصدقِهِم ونزاهتِهِم ، واجتماعِهِم على كلمةِ الإخلاصِ للهِ ولدينِهِ ولرسولِهِ،والخبرُ يلوحُ بالكذبِ، ويشيرُ باتهامٍ صريحٍ لعمروِ بن العاصِ أنّهُ وراءَ مقتلِ عثمان وحاشاه من ذلك.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((اللهَ ... اللهَ في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللهَ، ومن آذى اللهَ فيوشِكُ أن يأخذَهُ))[2] .

(١) نكأَ القرحةَ : قشرها قبل أن تبرأ فنديت . والقرحةُ : الجراحةُ ، والجمع : قرحٌ وقروحٌ .

(٢) رواه الترمذي .

ذلك أن جميعَ أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مقطوعٌ بصدقِهم وعدالتِهم ودخولِهم الجنةَ، ومن كان كذلك فقد نزع الله ما في قلبِهِ من حسدٍ وغلٍ، وعمروٌ واحدٌ منهم، قال تعالى :

﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبلِ الفتحِ وقاتلَ أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ (١) .

وعمروٌ منهم قاتل قبل الفتح وبعده، وشارك في فتوحاتٍ كثيرةٍ كما ذكرنا ذلك مفصلاً .

وقال الإمام أبو زرعةَ الرازي : (إذا رأيتَ الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنّهُ زنديقٌ، وذلك أن الرسولَ حقٌ، والقرآنَ حقٌ، وما جاء به حقٌ، وإنّما أدى إلينا ذلك كلَّهُ الصّحابةُ، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودَنا ليبطلوا الكتابَ والسنةَ، والجرحُ بهم أولى وهم زنادقةٌ) (٢) .

وقال ابنُ كثيرٍ في البداية والنهايةِ :

(وأما ما يذكرَهُ بعضُ الناسِ من أن بعضَ الصحابةِ أسلمَهُ ورضي بقتلِهِ، فهذا لا يصحُّ عن أحدٍ من الصحابةِ أنه رضي بقتلِ عثمانَ رضي الله عنه، بل كلهم كرهَهُ ومقتَهُ، وسبَّ مَنْ فعله .

(١) الآية ١٠ من سورة الحديد . (٢) الإصابة في تمييز الصحابة.

ولكنَ بعضَهم كان يودُّ لو خلع نَفسَهُ من الأمرِ كعمار بنِ ياسرِ، ومحمدِ بنِ أبي بكر وعمروِ بن الحمِقِ وغيرِهم)[١] .

وعمروُ بنُ العاص واحدٌ من الصحبِ الكرامِ الذين تمّنوا أن يخلعَ عثمانُ نفسَــهُ، أمـا أن يحـثَّ علـى قتلِـهِ فهـذا مـا لا يكـادُ يُصدّقُ .

ولا يُنكرُ أنّه التقى بعثمـانَ أكـثر مـن مـرّةٍ ودار الحديـثُ بينهما طويلاً لدرجةِ أن عثمانَ أغلظ عليـه في القـولِ وربمـا شـتمهُ وقال له : أتطعنُ عليَّ، وتأتيني بوجهٍ وتذهبُ عني بوجهٍ أخر ؟

فـأنكر عمـروٌ ذلـك وقـال: إنَّ كثـيراً ممـا يقـولُ النــاسُ، وينقلون إلى ولاِتهِم باطلٌ، فاتقِ الله يا أميرَ المؤمنين .

و في اجتمـاعِ مجلـسِ الشـورى الـذي كـان عمـروٌ أحــد أعضائِهِ، قال له عثمانُ : ما رأيك ؟

فقال عمروٌ : إنك قد ركبتَ الناسَ بمثلِ بني أميةَ، فقلـتَ، و قالوا ، و زغت و زاغوا ، فاعتدِل أو اعتزلْ ، فإن أبيت فـاعتزمْ عزماً أو امضِ قدماً) .

في اجتماعِ آخرَ صاح به عمروٌ في المسجدِ: (اتـقِ الله يـا عثمانُ ، فإنك قد ركبتَ أموراً ، و ركبناها معك ، فتُبْ إلى اللهِ، نتُبْ) .

---

(١) البداية والنهاية .

نعم إن مثل هذهِ المحادثاتِ و الخلافاتِ كثيراً ما تحدثُ بين الزعماءِ و القادةِ السياسيين، و هذا أمر طبيعي لتقويم اعوجاجٍ حصل من الحاكم بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، يريد معاونوه تذكيرهُ ونصحَهُ وتلافيَ الخطأِ، وتقويمَ الاعوجاج ، لسلامةِ الدولة ، ومصلحةِ الأمةِ، أما أن يصلَ الأمر إلى التصفيةِ الجسديةِ، أو التآمرِ على القتلِ فهذا ما لا يمكنُ تصديقُهُ خاصةً إذا نسب ذلك إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين يرون أن من واجبهم تقويمَ اعوجاج الخليفةِ، والقيامَ بمناصحته ، كما جرى لمن سبقه في الخلافةِ كعمر، و كم قال له بعضُ المسلمين : إن اعوججتَ قومناك بسيوفنا ومن قبلِهِ أبو بكرٍ الصديق الذي قال : أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَهُ، فإن عصيتُ اللهَ ورسولَهُ فلا طاعةَ لي عليكم .

ومثلُ هذه الشواهدِ والمواقفِ كثيرةٌ جداً في تاريخنا الإسلامي العظيم .

عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان

بعد مقتلِ عثمانَ رضي الله عنه ، واضطرابِ أمرِ المسلمين، واختلافِ آرائِهم حَول الثأرِ لعثمانَ، وملاحقةِ قاتليه والقصاص منهم ، تمتِ البيعةُ لعلي بن أبي طالبِ رضي الله عنه خليفةً للمسلمين بعد عثمانَ بن عفان رضي الله عنه ، وكان عمروٌ بعيداً عن مسرحِ المبايعةِ ، كما كان بعيداً عن مسرحِ القتالِ

الدامي الذي دار بين علي ومعاوية .

فقد وقف عمرو بن العاص محايداً لم ينتصر لأحدِهما في باديءِ الأمرِ، ولكن معاويةَ وجدَ نفسهُ بحاجةٍ لرجلٍ سياسي محنكٍ، شديدَ الدهاءِ، حادِّ الذكاءِ، قوي البديهة ، عميق الرؤيةِ ، وأنى له أن يجد من تتوافر فيه هذه العناصرِ ، ويتمتع بهذه الصفات؟

فأشار عليه بعضهم أنها توجد في إنسان واحدٍ ، هو عمروُ بنُ العاصِ بن وائلٍ السّهمي .

فكتب إليهِ معاويةُ في فلسطينَ يستدعيه للاعتماد عليه، والاستعانةِ بآرائِه .

فاستشار عمروٌ ولديه عبدَ اللهِ ومحمداً فيما يصنعُ .

فقال له ابنُهُ عبدُ اللهِ : قُتِلَ عثمانُ وأنت عنه غائبٌ، فقرَّ في منزِلكَ فلستَ مجعولاً خليفةً ، ولا نريدُ أن نكونَ حاشيةً لمعاويةَ على دنيا قليلةٍ ، أوشك أن نهلِكَ فنشقى فيها .

وقال محمدٌ : إنّك شيخُ قريشٍ وصاحبُ أمرِها، وإن تصرِمْ هذا الأمرَ وأنت فيه خاملٌ تصاغرَ أمرُكَ ، فالحق بجماعةِ أهلِ الشامِ فكن يداً من أيديهمْ .

فقال عمروٌ بعد أن استمع لهذينِ الرأيين المتناقضينِ :

أما أنتَ يا عبدَ اللهِ فأمرتني بما هو خيرٌ لي في ديني .

وأما أنتَ يا محمدُ فأمرتني بما هو خيرٌ لي في دنيايَ ، وأنا ناظرٌ فيهِ .

ووقف متردداً متحيراً فيما هو فاعلُهُ ، فدعا غلامَهُ وردانَ ، وكان كما وصفهُ بعضهم داهيةً مارداً، فقال له : ارحل يا وردانُ ، ثم صاح به : حُطَّ يا وردانُ .

فقال له وردانُ : خلطتَ أبا عبدِ الله، أما إنك إن شئتَ أنبأتُكَ بما في نفسِكَ .

قال : هاتِ ويحَكَ .

قال : اعتركتِ الدنيا والآخرةُ على قلبكَ ، فقلتَ : عليٌّ معه الآخرةُ في غيرِ دنيا ، وفي الآخرةِ عوضٌ من الدنيا .

ومعاويةُ معه الدنيا بغيرِ آخرةٍ ، وليس في الدنيا عوضٌ من الآخرةِ ، فأنتَ واقفٌ بينهما.

فقال عمروٌ : وا للهِ ما أخطأت ، فما ترى يا وردان؟

قال : أرى أن تقيم في بيتكَ، فإن ظهر أهلُ الدين عشتَ عند دينهم .

وإن ظهرَ أهلُ الدنيا لم يستغنوا عنكَ .

فتأمل عمروٌ قولَ وردانَ ملياً، ثم لم يلبثْ أن يَمَّمَ وجهَهُ شطرَ الشام حيث إنّ أحلامه وآماله وأمانيه مرتبطةٌ في هذه الرحلة وحين دخل عمروٌ على معاوية سأله فورا أن يتابعهُ في حربه ضدَ علي ، فقال عمروٌ مستفسراً.: لماذا ؟...

للآخرة ؟ فو ا لله ما معك آخرةٌ إنما هي الدنيا نتكالبُ عليها، فلا كانت حتى أكونَ شريكَكَ فيها .

وأخذ معاويةُ يذكرُهُ بمقتلِ عثمانَ ، وأن علياً كان وراءه وأنه أظهر الفتنةَ ، وفرق الجماعَةَ .

وراح يطلبُ منه أن يكونَ له عوناً على علي الذي فعل ما فعل من الممالأةِ على قتلِ عثمان ، وإظهارِ الفتنةِ ، وتفريقِ وحدةِ المسلمين .

فقال عمروٌ : إنّه وإن كان كذلك فإن المسلمين لا يعدلون به أحداً ، وليست لك مثلُ سابقتِهِ وقرابتِهِ .

وطال الحديثُ بينهما لينتهي بشرطٍ تقدم به عمروٌ ، وهو أن يعودَ إلى ولايةِ مِصرَ إن صغتِ الأمور لمعاويةَ ، وظهر على عليٍّ .

وكأنَّ الرجلين يساومان ، معاويةُ يريدُ أن يستعين بدهاءِ عمروٍ ليظهرَ على عليٍّ ليصبحَ خليفةً عاماً للمسلمين .

بينما عمروٌ يريدُ أن يجعلَ من ممالأةِ معاويةَ سبباً ليعودَ إلى ولايةِ مِصرَ، مع أنّهما لم يكونا من قبلُ على وفاق، بل ربّما كانا على كراهيةٍ وتنافسٍ وتنافرٍ، يؤيدُ هذا ما روي أن عمرَ رضي الله عنه سألهما يوماً، وكان معاويةُ قد قدم عليه من الشامِ، وعمروٌ قَدِمَ من مصرَ، وأخذ عمرُ يسألُهُما عن أعمالِهما ... إلى أن اعترضَ عمروٌ في حديثِ معاويةَ .

فقال له معاويةُ : أعملي تعيبُ؟ وإليَّ تقصدُ ؟ هلمَّ تخبر أميرَ المؤمنين عن عملي ، وأخبرْه عن عملك .

قال عمروٌ : فعلمتُ أنّـه بعملـي أبصـرُ مـني بعملِـهِ ، وأنَّ عمرَ لا يَدَعُ أولَ هذا الحديثِ حتى يصبحوا إلى آخِرِهِ..! فـأردتُ أن أفعلَ شيئاً أشـغلُ بـه عمـرَ عـن ذلـك، فرفعـتُ يـدي فلطمـتُ معاويةَ .

فقال عمرُ : تا الله مـا رأيـتُ رجـلاً أسـفَهُ منـك ، قـم يـا معاويةُ فاقتص منه .

فقال معاويةُ : إنَّ أبي أمرني أن لا أقضي أمراً دونَهُ .

فأرسل عمرُ إلى أبـي سـفيانَ، فلمـا أتـاه ألقـى لـه وسـادةً، وذكَرَ حديثَ رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا أتـاكم كريـمُ قومٍ فأكرموه، ثم قصَّ عليه ما جرى بـين عمـروٍ و معاويـةَ، فقـال: لهذا بعثتَ إليَّ ؟ أخوه وابنُ عمِهِ، و قد أتى غيرَ كبيرٍ، و قد وهبـتُ ذلك له .

يقول العقادُ معلقاً على هذه الحادثه :

(و أقـلُّ مـا في هـذه الروايـةِ و مثيلاتهـا أن المنافسـةَ بـين الرجلين كانت ملحوظةً لا غرابةَ فيها، وهي في موقعها مـن ولايـةِ الشام وولايةِ مصرَ أشبهُ شيء أن يكونَ .

وقال في موضعٍ آخر: فمعاويةُ لم يسـتقدمْ عمـراً لصداقـةٍ وصحبةٍ قديمةٍ .

وعمروٌ لم يَقدمْ على معاويـةَ لشـيءٍ مـن ذلـك، ولكنهمـا رجلانِ طموحان أريبان ، مثلهما لا يعادي إذا كان له في الصداقـةِ

نفعٌ ولا يصادقُ إذا لم يكنْ له في الصداقةِ أربٌ .

وإن أقربَ النـاسِ عندهمـا لوشـيكٌ أن يُقصـى إذا أقصَتْـهُ المنفعةُ، وإن أقصاهم لوشيكٌ أن يستدنى إذا كان في بعدِهِ ضررٌ .

فهما ملتقيان على تفاهمٍ صريحٍ بلسانِ المقـالِ، أو صريـح بلسانِ الحالِ، وقد عرفا ولا جـدالَ علـى أي وجـهٍ يتفاهمـان منـذ كتب هذا، وأجابه ذلك... انتهى من كتاب عمروِ بـنِ العـاصِ... للعقادِ .

ولقد انضم عمروٌ إلى صفِ معاويةَ يقاتلُ معركة ، ويبـدي له أراءَهُ ونصائحهُ ، كما كان له كثير من المواقـفِ الـتي تعـبرُ عـن ذكائِـهِ ودهائِـهِ وفطنتِـهِ وشـدةِ حيلِـهِ كرفـعِ المصـاحفِ في معركـةِ صفّـين ، وسـقوطِهِ عـن فرسِـهِ وكشـفِ سـوءتِهِ حـين نـازل عليـاً، وتتجلى مواقفُهُ في الدهاءِ في قصةِ التحكيم كما سيأتي .

أما ما وقع في معركتي الجملِ وصفينَ فلسنا بحاجةٍ الآن إلى ذكرِ تفاصيلها ، إذ ليست هـذه مناسبةً لها، وسـوف أذكرهـا في رسالةٍ لاحقةٍ إن شاء الله تعالى .

قصةُ التحكيم

بعد معركتي الجملِ وصفّين ، وبعد قتالٍ طويلٍ ومريرٍ راح ضحيَتهُ من الفريقين عشراتُ الآلافِ من المسلمين قُتلوا جميعاً بـأيدٍ مسلمةٍ وإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولعلَّ هذه الفتنةَ هي التي أشار إليها النبيُّ صلـى ا لله عليـه وسلم فيما رواه البخاري من حديثِ شعيب عن الزهري عـن أبـي سلمةَ عن أبي هريرةَ... ومن حديثِ شـعيبٍ عـن أبـي الزنـاد عـن الأعرج عن أبي هريرةَ عن رسولِ ا لله صلـى ا لله عليـه وسـلم أنّـهُ قال :

((لا تقومُ الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتان يُقتلُ بينهمـا مقتلةٌ عظيمةٌ ودعواهما واحدةٌ)) .

وقد حمل البيهقي وغيرُه هذا الحديـثَ على حـروبِ علـي ومعاويةَ رضي ا لله عنهما ، وقد ذُكِرَ أن جيشَ معاويةَ كان يومئـذٍ ستين ألفاً، فقُتِلَ منهم عشرون ألفاً .

وكان جيشُ علي مائةً وعشرين ألفاً، فقُتِـلَ منهـم أربعـون ألفاً.

وقيل : قتل من جيشِ معاويةَ خمســةٌ وأربعـون ألفـاً، ومـن جيشِ علي خمسةٌ وعشرون ألفاً وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ومنهـم خمسةٌ وعشرون من أهلِ بدرٍ الأمرُ الذي أحزنَ علياً رضي ا لله عنه وجعلهُ يضربُ بيديه على فخذيهِ ويقول: يـا ليتـني مـتُّ قبـل هـذا وكنتُ نسياً منسياً .

وعن قيسِ بن عبـادةَ قـال : قـال علـي يـوم الجمـلِ لابنِـهِ الحسنِ : يا حسنُ ، ليتَ أباك مات منذ عشرين سنةً.

فقال له حسنٌ: يا أبتِ قد كنتُ أنهاك عن هذا .

قال: يا بنيَّ ، إني لم أرَ أن الأمرَ يبلغُ هذا .

وقال مباركُ بنُ فضالةَ عن الحسنِ بنِ أبي بكرةَ : لما اشتدَّ القتالُ يومَ الجملِ، ورأى عليٌّ الرؤوسَ تندرُ[1] أخذ عليٌّ ابنَهُ الحسنَ فضمه إلى صدرِهِ ، ثم قال : إنا للهِ يا حسنُ ، أيُّ خيرٍ يُرجى بعد هذا ؟

وكان الحسنُ رضي الله عنه قد حاولَ منعَ أبيهِ من الخروجِ .

فقال له عليٌّ : إنّك لا تزالُ تحنُّ عليَّ حنينَ الجاريةِ ، وما الذي نهيتني عنه فعصيتُك ؟

فقال : ألم آمرْكَ قبل مقتلِ عثمانَ أن تخرجَ منها لئلاّ يُقتلَ وأنتَ بها، فيقولَ قائلٌ أو يتحدثَ متحدثٌ ؟

ألم آمُرْك ألاّ تبايعَ الناسَ بعد مقتلِ عثمانَ حتى يبعث إليك أهلُ كلِّ مِصرٍ ببيعتهم ؟

وأمرتُك حين خرجتْ هذه المرأةُ[2]، وهذان الرجلان أن تجلسَ في بيتك حتى يصطلحوا ، فعصيتَني في ذلك كلّهِ ؟

فقال له عليٌّ: أما قولُك أن أخرج قبل مقتلِ عثمانَ، فلقد أُحيط بنا كما أُحيطَ به .

وأما مبايعتي قبل مجيءِ بيعةِ الأمصارِ فكرهتُ أن يضيعَ

(١) تندرُ : تنفصل .

(٢) يقصد عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم .

هذا الأمر .

وأما أن أجلسَ وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه ، فتريدُ مني أن أكونَ كالضبعِ التي يُحاطُ بها ويقالُ ليستْ ها هنا، حتى يشقَ عرقوبُها فتخرج؟ فإذا لم أنظر فيما يلزمُني في هذا الأمرِ ويعنيني ، فمن ينظر فيه ؟ فكفَّ عني يا بني .

لقد أراد بعضُ المسلمين أن يحقنوا الدماءَ، ويصلحوا بين المقتتلين ويعودوا بالأمةِ إلى ما كانت عليه من وحدةِ الصفِ، وجمعِ الكلمةِ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ .

وبعد محاولاتٍ ومناقشاتٍ، ومكاتباتٍ اتفق الفريقان على التحكيم، وهو أن يحكمَ كلٌّ من عليٍّ ومعاويةَ رجلاً من أنصارِهِ، ثم يتفقُ الحكمان على ما فيهِ مصلحةُ المسلمين .

فوكل معاويةُ عمروَ بنَ العاصِ ، وأراد عليٌّ أن يوكِلَ عبدَ اللهِ بنَ عباسٍ ولكن جماعةً يُقال لهم القراءُ ، وهم الذين أصبحوا بعد ذلك خوارجَ لم يرضوا به ، وقالوا لا نرضى إلاَّ بأبي موسى الأشعري وكان أبو موسى رضي الله عنه قد اعتزل الفتنة ولم يرضَ بها ، ثم اختار عليٌّ رضي الله عنه الأشترَ النخعيَّ .

فلم يرضوا به أيضاً وقالوا : وهل سَعّرَ الحربَ، وشعر الأرضَ إلاَّ الأشترُ ؟

فقال عليٌّ رضي الله عنه : فاصنعوا ما شئتم .

فقال الأحنف بن قيس لعليّ : والله لقد رميتَ بحجرٍ إنه

لا يُصلحُ هؤلاء القومَ إلاّ رجلٌ منهم ، يدنو منهم حتى يصير في أكفِهم ، ويبتعد حتى يصيرَ بمنزلةِ النجمِ ، فإن أبيتَ أن تجعلني حكماً، فاجعلني ثانياً وثالثاً، فإنّهُ لن يعقدَ عقدةً إلاَّ أحلها، ولا يحلُ عقدةً عقدتُها إلاّ عقدتُ لك مثلها ، أو أحكمَ منها .

فأبى القومُ إلاَّ أبا موسى الأشعري ، فبعثوا إليه يطلبونه لهذه المهمةِ الإنسانيةِ المقدسةِ .

فلما وصلتِ الرُّسلُ إليه ، وقالوا له : إن الناسَ قد اصطلحوا .

فرح فرحاً شديداً وقال : الحمد لله.

فقالوا له : وقد جعلتَ حكماً .

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم صحبوه حتى أتوا به علياً رضي الله عنه .

اجتماعُ الحكمين

كان الفريقان قد اتفقا بصفينَ على أن يكونَ التحكيمُ بينهما في شهرِ رمضانَ بدومةِ الجندل ، وأن يأتي كلُ أميرٍ بأربعمائةٍ من أنصارِهِ .

وأخذ عمروُ بنُ العاص ، وأبو موسى الأشعري من علي ومعاويةَ ومن جنودِهِما العهودَ والمواثيقَ أنهما آمنان على أنفسِهما وأهلِهما ، والأمةُ لهما أنصارٌ على الذي يتقاضيان عليه .

ولما دخل شهرُ رمضانَ المباركُ بعثَ عليٌّ رضي الله عنه

أربعمائةِ فارسٍ مع شريحِ بنِ هانيء ، ومعهم أبو موسى ، وعبدُ الله بنُ عباسٍ .

وبعث معاويةُ عمروَ بنَ العاص في أربعمائةِ فارسٍ من أهل الشام وفيهم عبدُ الله بنُ عمرَ ، فتوافوا بدومةِ الجندلِ لكونِها تتوسطُ الطريقَ بينَ الكوفةِ والشامِ .

وقد شهد التحكيمَ جماعةٌ من رؤوسِ الناسِ، كعبد اللهِ بنِ عباس، وعبد اللهِ بنِ عمرَ، وعبدِ الله بنِ الزبيرِ، والمغيرةِ بنِ شعبةَ، وعبد الرحمنِ بن الحارثِ بنِ هشام، وعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ، وأبي جهمِ بنِ حذيفةَ .

وذكرَ بعضُهم أن سَعدَ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه حضر أيضاً والحقيقةُ أنّه لم يحضر .

ولما اجتمع الحكمان عمروُ بن العاصِ ، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما أخذا يستعرضا أمرَ الأمةِ ، وما آلَ إليه حالُها من اختلافٍ وشقاقٍ ونزاعٍ انتهى باقتتالِ إخوةِ دينُهم واحدٌ ، ونبيهم واحد ولابدَّ من معالجةِ الأمرِ، وإعادتِهِ إلى ما كان عليه قبل الاختلافِ .

ثم اتفقا على أن يعزلَ كلٌّ منهما صاحبَهُ ، ثم يجعلا الأمرَ شورى بين الناسِ ليتفقوا على الأصلحِ لهم .

فأشار أبو موسى بتوليةِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ .

فقال له عمروٌ : فولِ ابني عبدَ الله بنَ عمروٍ فإنه يقاربُهُ

في العلمِ والعملِ والزهدِ .

فقال أبو موسى : إنّك قد غمستَ ابنَك في الفتنِ معك، وهو مع ذلك رجلُ صدق .

فقال عمروٌ : إنَّ هذا الأمرَ لا يصلُحهُ إلاَّ رجلٌ له ضرسٌ يأكلُ ويطعمُ .

فقال أبو موسى : يا ابنَ العاصِ، إنَّ العربَ قد أسندتْ إليك أمرَها بعد ما تقارعَتْ بالسيوفِ، وتشاكت بالرماحِ، فلا تردنهم في فتنةٍ مثلِها أو أشدَّ منها .

وبعد حوارٍ طويلٍ ، وأخذٍ وردٍ حاول عمروٌ أن يقنعَ أبا موسى أن يقرَّ معاويةَ وحده على الناسِ ، فأبى عليه ، ثم حاولَ أن يقنَعهُ ليكونَ ابنُهُ عبدُ الله بنُ عمروٍ هو الخليفةُ ، فأبى أيضاً .

فطلبَ أبو موسى أن يكونَ الخليفةَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ، فامتنعَ عمروٌ أيضاً .

ثم اتفقا على أن يخلعا علياً ومعاويةَ ، ويتركا الأمرَ شورى بين الناسِ يتفقون على من يختارونه لأنفسِهم .

ثم خرجا إلى الناسِ، فقال عمروٌ : يا أبا موسى، قم فأعلمِ الناسِ بما اتفقنا عليه .

فقام أبو موسى ، فخطب الناس فحمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم صلى على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال: أيُّها الناسُ ، إنا قد نظرنا في أمرِ هذه الأمةِ ، فلم نرَ أمراً أصلحُ لها ولا

ألمَّ لشعثِها من رأيٍ اتفقتُ أنا وعمروٌ عليـه ، وهـو أنـا نخلـعُ عليـاً ومعاويةَ ونتركَ الأمرَ شورى ، وتسـتقبلَ الأمـةُ هـذا الأمـرَ فيولـوا عليهم مَنْ أحبوه ، وإني قد خلعتُ علياً ومعاويةَ .

ثم ترك مكانه ليتقدمَ عمروٌ الذي قام فمحمـد الله وأثنـى عليه ثم قال : إن هذا قد قال ما سمعتـم ، وإنـه قـد خلـع صاحبَـهُ، وإني خلقتُه كما خلقه ، وأثبتُ صاحبي معاويةَ ، فإنـه وليُّ عثمـانَ بنِ عفانَ ، والطالبُ بدمِهِ ، وهو أحقُّ الناسِ بمقامِهِ .

ثم ترك مكانَهُ ، وثار الناسُ ، وانتشر اللغط ، وعجبوا من فعلِ أبي موسى وخلعِه علياً ، ومن تثبيتِ عمروٍ معاويةَ خليفةً عاماً للمسلمين بعد عثمان .

وأحسَّ أبو موسى بالإحباطِ ، وأُسـقِط في يديـه ، وفوجـئَ بالمكيدةِ العظيمةِ ، وشعر أنه قد خزل عليـاً وأنصـارَهُ ، فثـار على عمروٍ يسبُهُ ويغلظُ عليه بالقولِ ، فرد عليه عمروٌ بكلامٍ أغلظَ.

وقام شريحُ بنُ هانئ الذي كان يتقدمُ جيشَ علـيٍ، فوثـب على عمروٍ فضربه بالسوطِ، فقـام إليـه أحـدُ أبنـاء عمـرو فضربـه بالسوطِ كذلك ، وكاد الشَّرُ أن يقعَ بين الفريقين، لولا أنَّ البعـضَ حجزَ بينهم ، فقاموا من أمـاكنهم، وتفرقـوا في كـلِّ جهـةٍ فذهـب عمـروٌ وأصحابُـهُ فدخلـوا غلـى معاويـةَ فسـلموا عليـه بتحيـةِ الخلافةِ .

وأما أبـو موسـى فاستحيا مـن علـيٍّ، وخجـلَ أن يقابلَـهُ،

وذهب إلى مكةَ .

ورجع ابنُ عباسٍ ، وشريحُ بنُ هانئ إلى علـي فأخـبراهُ بمـا فعل أبو موسى وعمروٌ، وعلموا أنها مكيدةٌ من مكائدِ عمـرو بـن العاص، وحيلةٌ عظيمةٌ من حيلِه ، وأن أبا موسى لا يوازنُ به ، فهو رجلٌ بسيطٌ وطيبُ القلبِ لا يعرفُ معنىً للمكرِ والحيلةِ والدهـاء، وعليه وعلى أمثالِهِ تمرُ الحيلةُ ، ويتجاوزُهُ المكرُ والدهاءُ والخديعةُ .

عودةُ عمروٍ إلى مصرَ

أثمرت جهودُ عمروٍ في خديعةِ أبي موسى، وكـانت ممالأتـهُ لمعاويةَ صادقةً، وهي مع ذلك لم تذهبْ هباءً منثـوراً ، فـإن معاويـةَ كان صادقاً مع عمروٍ فيما وعده به ومنّاه، وهو العـودةُ إلى ولايـةِ مصرَ، وهذا هو حلم عمروٍ الذي ترقبه طويـلاً ، وضحـى بالكثـير من أجلِ تحقيقهِ، وقد شاخ، وتقدمـت بـه السـنُّ وجـاوز الثمـانين، وآمالُهُ وأحلامه تشبُ معـه وتكـبر وصـدق رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسـلم : ((يهـرَمُ ابـنُ آدمَ، وتشـبُ معـه خصلتـان الحـرصُ والأملُ)) .

فجمع معاويةُ أمراءَه وخاصتَهُ وقال لهـم: هـل تـدرون مـا أدعوكم إليه ؟

قالوا : لا يعلمُ الغيبَ إلاَّ ا للهُ.

فتنبه عمروٌ وهو الذي شغلَهُ وأهمَّهُ أمرُ مصرَ، وقال: نعـم أهمَّكَ أمرُ مصرَ وخراجُها وعدوُ أهلِها فقـد عدنـا لنشـيرَ عليـك،

فاعزِمْ وانهضْ في افتتاحِها، عِزَّك وعِزَ أصحابَكْ وكبتَ عدوك .

فقال معاوية: يا ابن العاص، إنّما أهمكَ الذي كان بيننا – يقصدُ ولايةَ مصر – والتفتَ إلى صحبهِ يستشيرُهم ما ترون ؟

فوافقوا عمراً على اقتراحِهِ لفتحِ مصرَ، وعينه معاويةُ في الحالِ والياً.

لكن مصرَ في هذه الظروفِ بالذاتِ لم تكنْ لقمةً سهلةً، ولا طعمةً سهلةً ، فإنّ فيها محمدَ بنَ أبي بكر والياً قوياً من قبلِ عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه .

فجهز معاويةُ عمرا بستةِ آلافٍ من الجندِ وخرج معه مودعاً وأوصاه بتقوى الله والرفقِ والمهلِ والتؤدةِ، وأن يقتلَ من قاتلَ، ويعفو عمن أدبرَ، وأن يدعو الناسَ إلى الصلح والجماعةِ ومضى عمروٌ إلى مصرَ، فلما قدمها انضم إليه بعضُ المقاتلين الذين لم يبايعوا علياً، ولم يرضوا بولايةِ محمدِ بنِ أبي بكرٍ، وكانوا يُسمَّون بالعثمانيةِ .

وكتب عمروٌ إلى محمدِ بنِ أبي بكرٍ كتاباً يأمرُهُ فيه بالتنحي عن الولايةِ وتجنبِ الحربِ، وقال له: إني لا أحبُ أن يصيبَك مني ظفر، فإنَّ الناسِ قد اجتمعوا بهذه البلادِ على خلافِكَ، ورفضِ أمرِك، وندموا على اتباعِكَ ... فاخرج إني لك لمن الناصحين والسلامُ .

ثم بعث إليه عمروٌ أيضاً بكتابِ معاويةَ إليه ، أما بعد :

فإن حبَّ البغي والظلمِ عظيمُ الوبالِ، وإن سفكَ الدمِ

الحرامِ لا يَسلمُ صاحبُهُ من النقمةِ في الدنيا، والتبعةِ الموبقةِ في الآخرةِ، وإنا لا نعلمُ أحداً كان أشدَّ خلافاً على عثمانَ منك حين تطعنُ بمشاقصك بين حشاشته وأوداجهِ .

ثم إنّك تظن أني عنك نائمٌ أو ناسٍ ذلك لك حتى تأتي فتأمرَ على بلادٍ أنت بها جاري، وجلُّ أهلِها أنصاري، وقد بعثتُ إليك بجيوشٍ يتقربون إلى الله بجهادِكَ ، ولن يُسلمَكَ الله من القصاصِ أينما كنتَ ... والسلام.

فطوى محمدُ بنُ أبي بكرٍ الكتابين وبعث بهما إلى عليّ رضي الله عنه وأعلمه بقدومِ عمرو إلى مصرَ في جيشٍ من قِبلِ معاويةَ، فإن كانت لك بأرضِ مصرَ حاجةٌ فابعثْ إليّ بأموالٍ ورجالٍ، فردّ عليه علي يأمرُهُ بالصبر، وبمجاهدةِ العدو، وأنه سيبعثُ إليه الرجالَ والأموالَ، ويمدُّه بما أمكنَ من الجيوشِ .

وتقدم عمروُ بنُ العاصِ إلى مصرَ ومعه قريبٌ من ستةَ عشر ألفاً، وسار إليه محمدُ بنُ أبي بكرٍ في ألفي فارس، وقدَمَ بين يديه وعلى مقدمةِ جيشِهِ كنانةَ بنَ بشرٍ، فكان لا يلقاه أحدٌ من جيشِ عمرو إلاّ فرَّ أمامه راجعاً إلى عمروِ بنِ العاصِ، فبعث إليه عمروٌ معاويةَ بنَ خديج فدنا منه بجيشهِ الكثيف فأحاطوا به من كلِّ جانبٍ ، فترجلَ عن فرسِهِ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلاّ بإذنِ اللهِ كتاباً مؤجلاً ﴾[1] ثم قاتل حتى

(١) الآية ١٤٥ من سورة آل عمران .

قُتِلَ، وتفرقَ أصحابُ محمدِ بنِ أبي بكر في كلِّ جهةٍ ، ورجـع هـو يمشي لا يدري أين يذهب حتى انتهى إلى خربةٍ فأوى إليها .

ودخل عمروُ بنُ العاص فسطاط مصرَ، وذهب معاويةُ بـنُ خديجٍ يبحث عن محمدٍ بـنِ أبـي بكـر، ويطلبـهُ في كـلِّ مكـان، لا يلتقي بـأحدٍ إلاَّ سـألَهُ، ولا يمـرُ بقريـةٍ إلاَّ بحـث عنـه، حتـى مرَّ في طريقـه بجماعـةٍ مـن الأقبـاطِ، فقـال لهـم: هـل مـرَّ بكـم أحـدٌ تستنكرونه ؟

قالوا: لا.

فقال رجلٌ منهم: إني رأيتُ رجلاً جالساً في هذه الخربةِ.

فقال معاويةُ: هو وربِّ الكعبـةِ، فدخلوا عليـه، فـإذا هـو بحالةٍ سيئةٍ جداً، حتى إن العطشَ يكادُ يقتلَهُ .

فـانطلق أخـوه عبـد الرحمـن بـن أبـي بكـر إلى عمـرو بـن العاص ، وكان قـد قـدم معـه إلى مصـر ، فقـال لـه : أتقتـل أخـي صبراً ؟ فبعث عمروٌ إلى معاويةَ بن خديج أن يأتيه بمحمـد بـن أبـي بكر ولا يقتله .

فقال معاويةُ : كلا والله، أيقتلون كنانـة بـن بشـر وأتـرك محمدَ بنَ أبي بكر؟ وقد كان ممن قتل عثمـانَ، وقـد سـألهم عثمـانُ الماءَ ؟

هذا وكان محمدُ بـنُ أبـي بكـرٍ يوشـكُ أن يموتَ عطشـاً، فطلب منهم أن يُسقوه شربةَ ماء .

فقال له معاويةُ: لا سقاني الله إن سقيتُكَ قطـرةً مـن المـاءِ

أبداً، إنكم منعتم عثمانَ أن يشربَ الماءَ حتى قتلتموه صائماً مُحرِماً، فتلقاه الله بالرحيقِ المختومِ .

وقد روي أنَّ محمدَ بنَ أبي بكرٍ حين منعوه الماءَ ، وعاملوهُ معاملةً سيئةً جعل يشتُمهُم ، ويشتمُ معاويةَ بنَ خديج، وعمروَ بنَ العاصِ، ومعاويةَ بنَ أبي سفيان ، وعثمانَ بنَ عفانَ أيضاً، فغضب منه معاويةُ بنُ خديج فأمر بقتلِهِ ، ثم جعله في جيفةِ حمارٍ فأحرقه بالنار .

وقد رويَ أن عمراً قدم مصر بجيشِهِ فالتقى بجيش محمدِ بنِ أبي بكرٍ، وهم الذين يقال لهم المصريون، كما أنَّ عمراً وجيشهُ يقال لهم الشاميون .

فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل كنانةُ بنُ بشرٍ، فهرب عند ذلك محمدُ بنُ أبي بكرٍ، فاختبأ عند رجلٍ يقال له: جبلةُ بنُ مسروق، فأخبرَ عنه جنودَ عمروٍ، فأحاطوا به، فخرج إليهم وقاتلهم حتى قُتِلَ .

وكان محمدُ بنُ أبي بكرٍ ممن ثار على عثمان وطوقوا عليه منزله، ودخلوا عليه ليقتلوه، وهو الذي أخذ بلحية عثمان وقال له: ما أغنى عنك معاويةُ، وما أغنى عنك ابن عامر، وما أغنَتْ عنك كتبُكَ، فقال له عثمان: أرسل لحيتي يا ابنَ أخي، فو اللهِ لقد أخذتَ مأخذاً ما كان أبوك ليأخذَ به، فتركه وانصرف مستحياً نادماً، فاستقبله القومُ فقاتلهم حتى غلبوه ، ودخلوا على عثمانَ فقتلوه .

ومنهم الأشتر النخعي الذي كان يقاتلَ مع علي ، وكذلك كنانةُ بنُ بشر ، وقد تقدم ذكرهما .

ومنهم محمدُ بنُ أبي حذيفةَ بنِ عتبةَ أيضاً كان من جملةِ المحرضين على قتلِ عثمان، وقد قبض عليه عمروُ بنُ العاص في حربه مع محمدِ بنِ أبي بكر فلم يقتلْه لأنه ابنُ خال معاويةَ، فبعث به إليه فحبسه معاويةُ بفلسطينَ، ثم استطاع أن يهربَ من سجنِهِ، فلحقه رجلٌ يقال له: عبدُ اللهِ بنُ عمروِ بنِ ظلام، فاختفى محمدُ ابنُ أبي حذيفةَ بغارٍ في أرضِ البلقاء، فجاءت حمرُ وحشٍ لتأوي إليه، فلما رأته نفرت منه وهربت، فاستغرب الحصادون من هربِ حُمرِ الوحشِ، فقصدوا الغار فوجدوه فيه، فأخبروا عنه عبدَ اللهِ بنَ عمروِ بنِ ظلامٍ فأخذه، وخشيَ إن أرسله إلى معاويةَ أن يعفوَ عنه، فضربَ عنقَهُ .

مقتلُ علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه

ولتكتمل حلقةُ المؤامراتِ اليهوديةِ على الإسلامِ ولتنهي الفتنةُ اليهوديةُ السبئيةُ المنسوبةُ إلى عبدِ اللهِ بنِ سبأٍ اليهودي الذي كان هو وراءَ المؤامراتِ والفتنِ التي أصابتِ المسلمين، وجعلتهم يقتلُ بعضُهم بعضاً، ليس الآن مجالُ ذكرها وتفاصيلها، وحسبُنا أنا وقفنا في هذه الرسالةِ على جانبٍ صغيرٍ من جوانبها، ومررنا عليها مروراً سريعاً .

لقد أراد أعداءُ الإسلامِ أن ينهوا المسرحيةَ كما يزعمون بقتلِ زعماءِ الفتنةِ ، عليّ وعمروٍ ومعاويةَ في ليلةٍ واحدةٍ مدعين

بذلك أنّهم يجنبون المسلمين مزيداً من الاقتتال، ويحقنون دماءَ الأبرياءِ من المسلمين، وهم بذلك يزيدون كما يقال (الطينَ بلةً) .

فاختاروا ثلاثة من أشقى الأشقياء لهذه المهمةِ، وهم: عبدُ الرحمن بنُ ملجم ، والحجاج بنُ عبدِ ا للهِ الضمري ، ودادويَهِ العنبري قبحهم ا للهُ تعالى وقد فعل .

أما عبدُ الرحمن بنُ ملجم فقد ضرب علياً فقتلهُ ، وضرب الحجاجُ معاويةَ في الصلاةِ بدمشق فجرح أليتَهُ .

وأما دادويه العنبريُّ فقدم مصرَ لتنفيذ مهمتِهِ، فوجد عمراً قد أصابه مرضٌ فلم يخرج للصلاةِ، واستحلف عليها خارجةَ ابنَ حذافةَ ، وكان صاحبَ شرطتِهِ ، ويقالُ: إنه كان يعدلُ ألفَ فارسٍ، فقتلهُ دادويه وهو يظنُهُ عمراً، فقُبضَ عليه فأُدخِلَ على عمروٍ، فقال له : أردتَ عمراً وأراد ا لله خارجةَ، فصارت مثلاً، وإلى فداءِ عمروٍ بخارجةَ أشار عبدُ الحميدِ بنُ عبد ربه الأندلسي بقوله :

وليتَها إذ فَدَتْ عمراً بخارجةٍ   فَدَتْ علياً بما شاءَتْ من البشرِ

هذا وبقي عمروٌ أميراً على مصرَ حتى توفاه ا لله تعالى سنةَ ثلاثٍ وأربعين للهجرة، كما سيأتي تفصيلُهُ .

وفـــاةُ عـمـرو

وفي السنةِ الثالثةِ والأربعـين للهجـرةِ أدركتـه الوفـاةُ وهـو أميرٌ على مصرَ، فلما أحسَّ بالموتِ يدنو منــه أخـذ يبكـي، فـاعتقد أبناؤه ومن حوله أنّه يبكي خوفاً من الموت.

فقال له ابنُهُ عبدُ الله: لَمَ تبكي؟ أجزعاً من الموتِ ؟

فقال : لا والله ، ولكن مما بعد الموت .

فقال له : قد كنتَ على خيرٍ، وجعـل يذكـرُهُ بإسـلامِهِ ، وبصحبةِ رسولِ الله صلى الله عليــه وسـلم ، وحروبـهِ ، و فتـوحِ الشامِ وغيرِها .

فقال عمروٌ : تركتُ أفضلَ من ذلك كلِهِ شهادة أن لا إله إلاَّ الله ، وراح يستعرضُ حياتَهُ ، وما حدث له فيها ، فقال : إنــي كنتُ على ثلاثةِ أطباقٍ ليس فيها طبقٌ إلاَّ عرفتُ نفسي فيه :

كنتُ أول قريشٍ كافراً .

وكنتُ أشدَ الناسِ على رسولِ الله صلى عليه وسلم، فلـو مِتُّ حينئذٍ وجبَتْ لي النارُ، فلما بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليـه وسلم كنتُ أشدَ الناسِ حياءً منه، فما ملأتُ عيني من رسـولِ الله ولا راجعتُهُ فيما أريدُ حتىَ لحِقَ با لله حيـاءً، فلـو مِـتُّ يومئـذٍ قـال الناس :

هنيئاً لعمروٍ أسلم وكان على خيرٍ فمـات عليـه نرجـو لـه الجنةَ .

ثم تلبستُ بعد ذلك بالسلطانِ وأشياءَ، فلا أدري علـيَّ أم

لي .

وأخذ يوصي أبناءَه بأمورٍ، وينهاهم عـن أمـورٍ لا تجـوزُ في شريعةِ الإسلامِ ، فقال :

فإذا مِتُّ فلا تبكيَنّ عليَّ باكيةٌ، ولا يتبعُني مادحٌ ولا نـارٌ، وشدّوا عليَّ إزاري فإني مخـاصمٌ، وشـنوا علـيَّ الـتراب شـناً، فـإن جنبي الأيمنَ ليس أحقَّ بالتراب من جنبيَ الأيسرِ.

ولا تجعلُنَّ في قبري خشيةً ولا حجراً.

وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قـدرَ نحـرِ جـزورٍ أسـتأنسُ بكم، وفي روايةٍ: كي أستأنسَ بكم لأنظرَ مـاذا أراجـعُ رسـلَ ربـي عزَّ وجلَّ .

ثم حوّلَ وجهَهُ إلى الجدارِ وقال:

اللهم أمرتَنا فعصينـا، ونهيتنـا فمـا انتهينـا، ولا يسـعُنا إلاّ عفوُكَ .

وفي روايةٍ :

أنه وضع يده على موضعِ الغلِ من عنقِهِ، ورفـع رأسَـهُ إلى السماءِ وقال :

اللهم لا قوي فأنتصر، ولا بـريءَ فـأعتذر ، ولا مسـتنكر بل مستغفر لا إله إلاَّ أنتَ، فلم يزلْ يرددُها حتـى فـاضت روحُـهُ، وصعدَتْ إلى جوارِ رَبِها عزَّ وجلَّ راضيةً مرضيــةً، رضـي ا لله عنـه وأرضاه، وأدخله فسيحَ جنانِهِ مع الذين رضـي ا لله عنهـم ورضـوا عنه أولئك حزبُ ا للهِ ألا إن حزبَ ا للهِ هُمُ المفلحون.

ودخل عليه عبدُ الله بنُ عباسٍ رضي الله عنه في مرضِ موتِهِ، فسأله كيف أصبحتَ؟.

قال: أصبحتُ وقد أصلحتُ من دنياي قليلاً، وأفسدتُ كثيراً، فلو كان ما أصلحتُ هو ما أفسدتُ لفزتُ، ولو كان ينفعُني أن أطلبَ طلبتُ، ولو كان ينجيني أن أهربَ لهربتُ، فعظني بموعظةٍ أنتفعُ بها يا ابنَ أخي؟

فقال ابنُ عباسٍ: هيهات يا أبا عبدِ اللهِ ...

فقال عمروٌ : اللهم إن ابن عباسٍ يقنطُني من رحمتِكَ، فخُذْ مني حتى ترضى .

وكان يدعو ربَهُ عزَّ وجلَّ مظهراً توبتَهُ وتندُمَهُ على ما فعل في حياتِهِ، ويتمنى لو انّه يقي نفسهُ من عذابِ الله تعالى بمالِهِ وولدِهِ، فقال :

اللهم آتيت عمراً مالاً، فإن كان أحبّ إليك أن تسلُبَ عمراً مالَهُ ولا تعذّبه بالنار، فاسلُبْهُ مالَهُ .

وإنك آتيت عمراً أولاداً، فإن كان أحبّ إليك أن تُثكِلَ عمراً ولدَهُ ولا تعذّبه بالنار، فأثكلْهُ ولدَهُ.

وإنك آتيت عمراً سلطاناً، فإن كان أحبَّ إليك أن تنزعَ منه سلطانهُ ولا تعذبَهُ بالنار،فانزعْ منه سلطانَهُ.

وكان إيمانَهُ بالله تعالى، وتمسكُهُ بكلمةِ التوحيدِ هو الزاد الذي يحملُهُ في رحلةِ الموتِ ليكونَ الوسيطَ له عند الله تعالى، والمخلصَ له من عذابِ يومِ القيامةِ فيقولُ:

إني لستُ على الشركِ الذي لو مِتُّ عليـه أدخلْـتُ النـار، ولا في الإسلامِ الذي لو مِتُّ عليه أدخلتُ الجنــةَ، فمهمـا قصّـرت فيه، فإني متمسكٌ بلا إله إلاَّ ا لله.

وقال وهو على فراشِ الموتِ: اللهم أمرتَ بأمورٍ، ونهيــتَ عن أمورٍ، فتركنا كثيراً مما أمرتنا، ووقعنا في كثيرٍ مما نهيتَ ... اللهم لا إله إلاَّ أنت... اللهم لا إله إلا أنت .

خاتمةٌ في ذكرِ نبذةٍ من كلامِهِ

كان رضي الله عنه كما عرفنا حادَّ الذكاء، حاضرَ البديهةِ، راجحَ العقلِ، عميقَ الرؤيةِ، فصيحَ اللسانِ، قويُّ البيانِ، حلوَ الحديثِ، ينطقُ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ.

قال لمعاوية يوماً: يا أميرَ المؤمنين، لا تكن بشيء في أمورِ رعيتِك أشدَّ تعمداً منك لخصاصةِ الكريمِ حتى تعملَ في سدّها، ولطغيانِ اللئيمِ حتى تعملَ في قمعِهِ.

واستوحشْ من الكريمِ الجائعِ، ومن اللئيمِ الشبعانِ، فإن الكريمَ يصولُ إذا جاع، واللئيمَ يصولُ إذا شبع.

ووصف عبدَ الملك بنَ مروان فقال:

آخذٌ بثلاثٍ، تارك لثلاثٍ:

آخذٌ بقلوبِ الرجالِ إذا حَدَّثَ، وبحُسنِ الاستماعِ إذا حُدِّثَ، وبأيسرِ الأمرينِ عليه إذا خولفَ.

تاركٌ للمراءِ، تاركٌ لمقاربةِ اللئيمِ، تاركٌ لما يعتذر منه .

وقال في وصف الرجال :

الرجالُ ثلاثةٌ :

فرجلٌ تامٌ، ونصفُ رجلٍ، ولا شيء .

فأما الرجلُ التامُّ، فالذي يكملُ دينُهُ وعقلُهُ، فإذا أرادَ أمراً لم يُمضِهِ حتى يستشيرَ أهلَ الرأي، فإذا وافقوه حمدَ الله وأمضى رأيَهُ ، فلا يزالُ مضيُّه موفقاً.

ونصفُ الرجلِ: الذي يكملُ الله له دينَهُ وعقلَهُ، فإذا أراد

أمراً لم يستشِرْ فيه أحداً، وقال: أي الناسِ كنتُ أطيعُهُ أو أتركُ رأيي لرأيهِ؟ ... فيصيبُ ويخطئ .

والذي لا شيء: مَنْ لا دينَ له ولا عقلَ، ولا يستشير في الأمرِ فلا يزالُ مخطئاً مدبراً ... وا لله إني لأستشيرُ في الأمرِ حتى خدمي .

وقال لأحدِ أبنائِهِ: يا بُني، إمامٌ عادلٌ خيرٌ من مطرٍ وابلٍ، وأسدٌ خطومٌ خيرٌ من إمامٍ ظلومٍ، وإمامٌ ظلومٌ غشومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم .

يا بني، زلةُ الرِّجلِ عظمٌ يُجبَرُ، وزلةُ اللسانِ لا تُبقي ولا تذرُ، يا بني، استراحَ من لا عقلَ له.

وقال في وصفِ الأممِ:

أهلُ الشامِ أطوعُ الناسِ لمخلوق وأعصاهم للخالقِ.

وأهلُ مصرَ أكيسهم صغاراً وأحمقهم كباراً.

وأهلُ الحجازِ أسرعُ الناسِ إلى الفتنةِ، وأعجزُهُم عنها.

وأهلُ العراقِ أطلَبُهم للعلمِ وأبعدُهم منه.

وقال له رجلٌ: كان بينكم وبين الفتنةِ بابٌ فكسرتموه فما حملكم على ذلك؟

قال: أردنا أن نخرجَ الحقَ من حظيرةِ الباطلِ، وأن يكونَ الناسُ في الحقِ سواءً.

وقال: ما وضعتُ عند أحدٍ من الناسِ سراً فأفشاه فلمتُهُ.

فسئِلَ: ولِمَ؟

قال: أنا كنتُ به أضيقَ صدراً حين استودعتُهُ إياه.

وقال: في وصفِ البحرِ:

إنّهُ خلقٌ عظيمٌ، يركبُهُ خلقٌ صغير، دودٌ على عودٍ.

وقد تقـدم معنـا وصفُـهُ الرائـعُ لأرضِ مصـرَ، في مراسـلتِهِ لعمرَ ابنِ الخطاب رضي الله عنه .

قال له رجلٌ: والله لأتفرغنّ لك .

فقال له: هنالك وقعتَ في الشغل.

قـال الرجـل: كـأنك تهددُنـي؟ والله لئـن قلـتَ لي كلمـةً لأقولنَّ لك عشراً.

قال: وأنت والله لئن قلتَ لي عشراً لم أقلْ لك واحدة.

وقال له المنذرُ بن الجـارود العبـدي: أيُّ رجـلٍ أنـت لـو لم تكن أمُكَ من هي؟

فقال له: لقد فكرت فيها البارحةَ، فجعلتُ أنقلُها في قبائِلِ العربِ فما خطرتْ لي عبدُ قيس ببال.

وسمع رجلاً يقولُ: لئن لم تنتهِ قريشٌ ليوضعنّ هذا الأمرُ في جمهورٍ من جماهيرِ العربِ سواهم.

فأجابه عمروٌ قائلاً: كذبتَ، سمعتُ رسولَ الله صلى عليـه وسلم يقولُ:

قريشٌ ولاةُ الناسِ في الخيرِ والشرِ إلى يومِ القيامةِ .

واختصم رجلان إلى النـبي صلـى الله عليـه وسـلم، فقـال لعمروٍ: اقضِ بينهما.

فقال عمروٌ: أنت أولى بذلك مني يا رسول الله!...

قال: وإن كان.

قال عمروٌ: فإذا قضيتَ بينهما فمالي ؟

قال: إن أنت قضيتَ بينهما فأصبتَ القضاء فلك عشرُ حسناتٍ، وإن أنت اجتهدتَ فأخطأتَ فلك حسنةٌ .

ومما أثِرَ عنه في الأدبِ وحسنِ الخلق، أنّه استأذن على فاطمةَ رضي الله عنها، فأذنت له، فسأل: ثَمَّ عليٌّ ؟ أي عليٌّ هنا؟

قالوا: لا، فرجع.

ثم استأذن عليها مرةً أخرى، فسأل كذلك: ثّمَّ عليٌّ؟

قالوا: نعم، فدخل.

فقال له عليٌّ: ما منعك أن تدخلَ حين لم تجدْني ههنا؟

قال: إن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندخلَ على المغيّباتِ.

هذه بعضُ نماذجَ من أقوالِهِ في الأدبِ، وحسنِ الخلقِ، والنصحِ والصبرِ، والحلمِ، وضبطِ النفسِ، وسرعةِ الجوابِ، وقوةِ البديهةِ ليبدو ذلك جلياً واضحاً من خلال ما نقلت لك من المصادرِ الصحيحةِ والموثوقة ، وجلُّها من كتاب(عمرو بن العاص...للأستاذ العقاد).

وما روي عنه في الشعرِ كثيرٌ، نقلتُ لك منها هذين النموذجين:

قال رضي الله عنه :

إذا المرءُ لم يتركْ طعـاماً يحبُّهُ   ولم ينْهَ قلباً غاوياً حيثُ يَممَا
قضى وطراً منه وغـــادرَ سُبَّةً   إذا ذكرت أمثالُها تملأ الفمـــا
من الآن فانزعْ من مطاعمَ جمةٍ   وعالجْ أمورَ الموتِ لا تتندما

وقال يخاطبُ معاويةَ :

معـــاويَ لا أعطيك ديني ولم أنلْ   به منك دنيا فانظرَنْ كيف تصنعْ
فإن تغظني مصراً فأربحْ بصفقةٍ   أخـــذتَ بها شيخاً يضرُ وينفعْ

وهذ آخر مايسرَ ا لله تعالى في كتابةِ هذه الترجمةِ المتواضعـةِ التي توضحُ حياةَ علمٍ عظيمٍ من أعلامِ ديننا العظيم، وتراثنـا الـذي نعتزُ ونفخرُ حينما نوغلُ فيه، ونسبر غورَه عن رجالِ عمالقةٍ عظامٍ أعطوا الإنسانيةَ كلَّها نماذجَ رائعـةً في التضحيـة والفداء، والبـذلِ والعطاء، والنبـلِ والوفـاءِ فكـانوا كمـا وصفهـمُ القـرآنُ العظيـم:

﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهـم من قضى نحبَهُ ومنهم من ينتظرُ وما بدلوا تبديلاً ﴾ [1] .

صدق ا لله العظيم

تمت الرسالة
والحمد لله رب العالمين

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

الفهرس



الزُّبَير بن العوّام

اعداد
عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية – حلب – خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الزُّبير بن العوّام رضي الله عنه

إن لكلّ نبيّ حواريّاً ، وحواريّ الزبيرُ

اسمُه ونسبُه :

هو الزبير بن العوّام بنِ خويلد بنِ أسدِ بنِ عبد العُزّى ابنِ قصيّ بن كلاب ، القرشيُّ الأسديُّ ، أحدُ العشرة المبشرين بالجنة على لسانِ رسول الله ﷺ .

أمه : صفية بنتُ عبد المطّلب ، عمّةُ رسول الله ﷺ .

كنيتُه :

كان الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه يكنى أبا عبد الله بولدِه عبد الله بنِ الزبير ، وكانت أمه صفيةُ رضي الله عنها تكنيه

أبا الطاهر بكنية أخيها الزبير بنِ عبد المطلب ، واكتنى هو بابنه عبد الله ، فغلبت عليه .

لقبُهُ :

يلقبُ بحواري رسول الله ﷺ .

والحواريّ : الناصرُ . وأصل التحوير : التبييضُ ، والحواريّون : القصّارون لتبييضِهِم لأنهم كانوا قصّارين ثم غلب حتى صار كلُّ ناصرٍ وكلُّ حميم حواريّاً .

وقال بعضُهم : الحواريّون صفوةُ الأنبياء الذين قد خلَصوا لهم .

وقال الزجاجُ : الحواريّون خُلصانُ[1] الأنبياء عليهمُ السلامُ وصفوتُهم .

قال : والدليل على ذلك قولُ النبي ﷺ : « الزبيرُ ابنُ عميّ وحواريَّ من أمتي » أي خاصّتي من أصحابي

---

[1] الخلصان : الخالص من الأخوان (يستوي فيه الواحد والجمع) .

وناصري .[1]

وإنّ هذا لعزٌّ للزبير وفخرٌ وشرف أن يطلقَ النبيُّ ﷺ لقبَ الناصرِ له ، والخالصِ والمساعدِ والمعينِ ، والصفوةِ من الصحب الكرام .

وهذا لعمري لقب لا يناله ، ويظفرُ به إلاّ من كان موفّقاً وسعيداً ومحظوظاً وعلى درجة عظيمة من الصدق والأمانة ، والورعِ والاستقامة ، وإنّها لمزايا كريمةٌ ، وسجايا رفيعةٌ اجتمعت وتمثّلت في نفس الزبير بن العوام ﷺ .

صفتُه :

كان ﷺ أبيضَ طويلاً ، نحيفاً .

وقيل : لم يكن بالطويلِ ولا بالقصير ، نحيفاً أسمرَ اللون، كثيفَ الشعرِ ، خفيفَ العارضين .

---

[1] لسان العرب .

إسلامه :

أسلم ﷺ بمكة قديماً على يد أبي بكـــر الصديـــق ﷺ وله من العمر اثنتا عشرةَ سنةً ، وقيل : ثمانِ سنين ، وأســـلم معه يومئذٍ طلحةُ بنُ عبيد الله ، وعبدُ الرحمن بـــن عـــوف ، وسعدُ بن أبي وقّاص ﷺ .

وحين نذكرُ الزبيرَ نرى أن بينه وبين طلحةَ بنِ عبيد الله رضي الله عنهما تشابهاً كبيراً ، وقاسماً مشتركاً، حتى لَيُخَيَّـــلُ إلى المرء أنّهما توأمان في كلّ شيء ، وإني إذ أقـــولُ هـــذا الكلام أجد نفسي مضطراً أن أقفَ بأدبٍ واحترام أمام مـــا ذكره الأستاذ الباحث خالد محمد خالد عن هذين العملاقـين الكبيرين في كتابه (رجال حول الرسول) حيث قال :

(لا يجيء ذكرُ طلحةَ إلاّ ويذكرُ الزبيرُ معه .

ولا يجيء ذكرُ الزبير إلاّ ويذكر طلحةُ معه .

فحين كان الرسولُ عليه الصلاة والســـلام يؤاخي بين

أصحابه في مكةَ قبل الهجرةِ آخى بين طلحةَ والزبير .

وطالما كان عليه الصلاة والسلام يتحدّث عنهما معـــاً، مثلَ قولِهِ : « طلحةُ والزبيرُ جاراي في الجنة » .

وكلاهما يجتمعُ مع الرسول ﷺ في القرابة والنسب).

ويتابع حديثَهُ عنهما قائلاً :

(وكلٌّ منهما ــ طلحةُ والزبيرُ ــ كان أكثرَ النـــاس شبهاً بالآخرِ في مقاديرِ الحياة .

فالتماثلُ بينهما كبيرٌ ... في النشأة ... في الـــثراء ... في السخاء ... في قوةِ الدين ... في روعـــة الشــجاعةِ ... وكلاهما من المسلمين المبكّرين بإسلامِهم ، ومن العشرةِ الذين بشّرهمُ الرسولُ ﷺ بالجنةِ، ومن أصحاب الشـــورى الســتةِ الذين وكل عمرُ إليهم أمرَ اختيارِ الخليفةِ من بعـــده ، حـــتى مصيرُهما كان كامل التماثلِ ، بل كان مصيراً واحداً)[1] .

---

[1] رجال حول الرسول .

ومن يوم أسلم الزبيرُ وبايع النبيَّ ﷺ لم يتخلّف عنه في غزوةٍ غزاها ، أو سريةٍ سيرها .

لقد شهد المشاهدَ كلها مع رسولِ الله ﷺ ، فكان الفارسَ يوم بدرٍ ، والفارسَ يوم أحدٍ ، والفارسَ يوم الخندق، والفارسَ في جميع الغزواتِ والمشاهدِ ، بل لقد كان الفارسَ من يوم أسلم في مكةَ حتى عُرِفَ بين الناس جميعاً بأنه أولُ مَنْ سلّ سيفاً في سبيل الله عز وجل .

وعن عروة بنِ الزبير قال : أولُ رجلٍ سلَّ سيفَه في سبيل الله الزبيرُ ، وذلك أن الشيطانَ نفخ نفخةً فقال : أُخذ رسولُ الله ﷺ ، فأقبل الزبير يشقُّ الناسَ بسيفه ، والنبيُّ ﷺ بأعلى مكة .

وفي رواية ابن المسيَّب : فقيل : قُتِلَ رسولُ الله ﷺ فخرج الزبيرُ متجرِّداً بالسيف صلتاً .

ولقد بدت عليه أماراتُ الشجاعةِ والثباتِ والصبر وتحمُّلِ المشاقِّ منذ طفولته ونعومةِ أظفاره ، فلقد مات أبوه

وهـو صغير فقام بتربيته عمه نوفلُ بـن خويلـدٍ ، فلمـا أسـلم الزبيرُ كان عمه نوفل يعلقُه في حصيرٍ ، ويدخـنُ عليـه ليرجعَ إلى الكفـر ، فكـان الزبـيرُ ﷺ يتحمـلُ ذلـك صـابراً محتسـباً ويقول : وا لله لا أكفرُ أبداً .

وكانت أمه صفيّةُ بنتُ عبد المطّلب تضربُه وهـو صغير وتغلظُ عليه ، فكـان عمُّـه نوفـل يعاتبهـا ويقـول : مـا هكـذا يُضربُ الولدُ ، إنكِ لتضربينَهُ ضربَ مبغضةٍ ، فرجزت صفيّـةُ قائلةً :

من قال إني أُبْغِضُهْ فقد كذبْ ... وإنـمـا أضربُـه لكي يلبْ
ويهزمَ الجيشَ ويأتي بالسـلَبْ ... ولا يكنْ لما له خبأُ مخبْ
يأكل ما في البيت من تمرٍ وحبّ

فقال نوفل : يا بني هاشمٍ ، ألا تزجرونها عني ؟

جهاده :

ومـن رآه يـوم بـدرٍ ، ويـومَ أحـدٍ ، ويـومَ الخنـدق ... ومن رآه في جميعِ المشاهدِ والغزواتِ رأى من آيـاتِ صدقه

وإخلاصِهِ ، وجهادِهِ وتفانيه في سبيل الله ، ما يجعلُهُ قدوةً للشباب الطامحِ والمؤمن في كلِّ زمانٍ ومكان .

جهاده يوم بدر :

لقد خرج المشركون إلى بدرٍ بجدِّهم وحديدهم يحادّون الله ورسولَه ، كما وصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **خرجوا من ديارهم بطراً ورئاءَ الناسِ ويصدّونَ عن سبيل الله والله بما يعملون محيطٌ * وإذْ زيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهم وقال لا غالبَ لكمُ اليومَ من الناس وإني جارٌ لكم فلمّا تراءتِ الفئتان نكصَ علي عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخافُ الله والله شديد العقاب** ﴾[1] .

خرج المشركون يومئذٍ وعددُهم تسعمئةٍ وخمسون مقاتلاً ، معهم مئتا فرسٍ وستمئةِ درع .

بينما كان عددُ المسلمين ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ليس

---

(1) الآيتان ٤٧ ـ ٤٨ من سورة الأنفال .

معهم سوى فرسين ، الأول كان للزبيرِ بنِ العـوام ، والآخـر للمقداد بن الأسود .

ولقـد قـاتل الزبـيرُ يومئـذٍ قتـالَ الأبطـال ، وأبلـى بـلاءً حسناً ، وكانت عليه عمامةٌ صفراءُ معتجراً بهـا، فقـال النـبي عليه الصلاة والسلام: «إن الملائكةَ نزلت على سيماء الزبير».

وقال له النبي ﷺ : « فداك أبي وأمي » .

وعـن عـروة قـال : كـان في الزبـيرِ ثـلاثُ ضربـاتٍ بالسيف ، كنـتُ أُدخـلُ أصـابعي فيهـا ، ثنتـين يـومَ بـدرٍ ، وواحدة يوم اليرموك .

جهادُه يوم أحد :

وقف النبي ﷺ يومَ أحدٍ، وقد أمسك بيدهِ سيفاً وجعـل يتفحّصُ الوجوه المؤمنةَ التي أقبلت إلى أُحُدٍ للدفاع عن الديـن والعقيـدة ونيـل شـرف الشـهادةِ في سـبيل الله ، فقـال : مـن يأخذُ هذا السيفَ بحقّـه؟ فقام إليـه رجـالٌ منهـم الزبير ﵁،

فأمسكهُ عنهم ، حتى قـام أبـو دجانـة ﷺ فقـال: ومـا حقّـه يا رسول الله ؟

قال : أن تشربَ[1] به العدوَّ حتى ينحني .

فقـال أبـو دجانـة : أنـا آخـذُه بحقّـه يـا رسـول الله .. فأعطاه إياه .

فوَجدَ[2] الزبـيرُ في نفسـه ... ولْنصـغِ إليـه وهـو يحدثنـا عن هذا الموقف، ويصفُ لنا جوَّ المعركة ، يقولُ الزبيرُ ﷺ :

وَجدْتُ في نفسي حين سـألتُ رسولَ الله ﷺ السيفَ فمنعنيهُ وأعطاه أبا دجانـةَ ، وقلـتُ : أنـا ابـن صفيّـةَ عمَّتِـه ، ومن قريشٍ ، وقد قمتُ إليه فسـألتُهُ إيـاه قبلَـهُ ، فأعطـاه إيـاه وتركـني ... ! والله لأنظـرَنَّ مـا يصنـعُ ، فاتّبعتُـهُ فـأخرج عصابـةً لـه حمـراءَ ، فعصـبَ بهـا رأسَـهُ ، فقـالتِ الأنصـارُ : أخرج أبو دجانة عصابةَ الموت . وهكذا كانت تقـولُ لـه إذا

---

[1] تشرب : تضرب .

[2] وَجدَ : حزن .

تعصّب بها .

وهكـذا كـان الزبـيرُ ﷺ يتبـعُ أبـا دجانـةَ ، ويراقـبُ أعمالَه، ويشهدُ بطولاتِه الخارقةَ .

ولا شـك لو أنّ الرسـولَ ﷺ أعطى الزبيرَ ذلك السـيف لهدَّ به المشركين وفعل به كما فعل أبو دجانة .

وها هو ذا الزبيرُ يصـوِّرُ لنـا مشـهداً آخـرَ مـن مشـاهد معركة أحدٍ فيقول :

وا لله لقـد رأيتُـني أنظـرُ إلى خـدم[1] هنـد بنـت عتبـةَ وصواحبها مشمراتٍ هواربَ ما دون أخذِهِنَّ قليلٌ ولا كثيرٌ، إذ مـالتِ الرمـاةُ إلى العسـكر ، حـين كشـفنا القـومَ عنـه ، وخلَّوا ظهورَنا للخيلِ ، فأُتينا مـن خلفِنـا ، وصـرخ صـارخٌ : ألا إن محمداً قد قُتِلَ .

هنا ذُهِلَ المسلمون ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وهربوا من أرضِ المعركة ، ولم يثبتْ إلاّ القليلُ، وكان الزبيرُ ﷺ واحـداً

---

(1) الخَدَمَة : الخلخال ، والجمع خدم .

منهم فقد ثبتوا في أماكنهم يقاتلون المشركين بكل ما أوتــوا من قوّة وبسالةٍ ، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتاً ينـــادي بأعلى صوتِــه : يــا معشــرَ المســلمين ، أبشــروا هــذا رسولُ الله ﷺ ، وإذا به كعبُ بن مالكٍ ﷺ .

وما إن سمعوا هذا النداء حتى شدُّوا هِمَّتَهم، وجــددوا نشاطهم، وراحوا يقاتلون دون رسول الله ﷺ، ويدافعون عنه ويتلقَّوْن طعناتِ العدوّ، وكان الزبير ﷺ من جملةٍ من ثبــت يومئذٍ ودافعَ عن رسول الله ﷺ، فأُصيب يومئذٍ بعدةِ جروح.

ولقد أثنى الله عز وجل على الزبــير والمســلمين ثنــاءً حسناً، وقلّدهم أوسمةَ التكريم ، وخلّد ذكراهــم في كتابــه العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسولِ من بعدِ ما أصابهمُ القَرْحُ للذين أحسنوا منهم واتقــوا أجــرٌ عظيمٌ * الذين قال لهمُ الناسُ إنّ الناسَ قد جمعــوا لكــمْ فاخشَوْهم فزادهمْ إيماناً وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيــلُ * فانقلبوا بنعمــةٍ مــن الله وفضلٍ لم يمسسهمْ سوءٌ واتّبعوا**

رضوانَ اللهِ واللهُ ذو فضل عظيم ﴾[1] صدق الله العظيم .

روى البخاري بسنده عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت لعروة بنِ الزبير : كان أبوك من الذين استجابوا للهِ والرسول من بعد ما أصابهمُ القرحُ .

جهادُهُ يوم بني قريظة :

وحين طال حصارُ بني قريظةَ دون أن يستسلموا أرسله الرسولُ ﷺ مع علي بن أبي طالب ﷺ ، فوقف أمام الحصنِ المنيع يرددُ مع علي قولَه :

(واللهِ لَنَذوقَنَّ ما ذاق حمزةُ ، أو لنفتَحنَّ عليهم حصنَهم) ثم ألقيا بنفسهما وحيدين داخلَ الحصن .

وبقوة أعصابٍ مذهلةٍ أحكما إنزالَ الرعب في أفئدة المتحصّنين داخلَه ، وفتحا للمسلمين أبوابه .[2]

---

[1] الآيات ١٧٢ - ١٧٤ من سورة آل عمران ... والقرح : الجراح .

[2] رجال حول الرسول .

وروي عن جابرٍ ﷺ قال : قال لي النبيُّ ﷺ يومَ بني قريظةَ : « من يأتيني بخبر القوم ؟ »

فانتدبَ الزبيرُ ، فقال النبي ﷺ : « إنَّ لكلِّ نبيٍّ حواريّاً، وإن حواريَّ الزبيرُ »[1] .

وإنه لشرفٌ كبيرٌ للزبير ﷺ أن يباهيَ به الرسولُ ﷺ ويحقُّ للرسول الكريم ﷺ أن يباهيَ به ويفخرَ ، فهو لم يكن صاحبَهُ وفارسه فحسب ، فهو صاحبُه وقريبُه وابنُ عمَّتِه صفيةَ رضي الله عنها ، وزوج أسماء أختِ زوجتِه عائشةَ رضي الله عنهما ، وهما ابنتا الصدّيقِ أولِ من آمن بالنبي ﷺ.

وزوجُهُ أسماءُ ذاتُ النطاقين التي كان لها دورٌ كبيرٌ وفعّالٌ يوم الهجرة المباركةِ ، يوم كانت تعرّضُ نفسها للخطر لتؤمِّنَ للرسول ﷺ ولأبيها الطعامَ ، وتنقلَ لهما الأخبار .

---

[1] الإصابة في تمييز الصحابة .

كـلُّ هـذه الأسـبابِ والخصـالِ مجتمعـةً، أضِـفْ إليهـا الصدقَ والوفاءَ ، والقوة والسخاءَ ، والشجاعةَ والإباء جعلت النبيَّ الكريم ﷺ يعتزُّ بالزبير ويفخرُ به أنه واحدٌ مـن الصحب الكرام ، ويقول متباهياً :

«إن لكل نبي حوارياً، وإن حواريَّ الزبيرُ بن العوّام» .

وما أجملَ وصفَ الصحابي الجليل حسانَ بن ثابتٍ حين وصف الزبيرَ بقوله :

أقـام على عـهـدِ النبيِّ وهديـهِ
حواريُّـهُ والقول بالفعلِ يعـدلُ
أقـام على منهـاجـه وطريقـهِ
يوالي وليَّ الـحـقِّ والـحـقُّ أعـدلُ
هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذي
يصولُ إذا مـا كـان يومٌ مـحـجـلُ
له مـن رسول الله قربى قريبـةٌ
ومـن نصرة الإسـلام مـجـدٌ مؤثّـلُ

فكم كربةٍ ذبَّ الزبيرُ بسيفه

عنِ المصطفى وا لله يعطي ويُجْزِلُ

جهادُهُ يوم اليرموك :

لم يكنِ الزبيرُ فارساً ومجاهداً في سبيل ا لله ، ورافعاً حسامَهُ في وجه من يقفُ في طريق دعوة الإسلام في حياة النبي ﷺ فحسب ، بل لقد حفظ العهدَ الذي قطعه على نفسِه ، وبايعَ عليه النبيَّ ﷺ ، وكان مجاهداً في سبيل ا لله بعد وفاة النبي ﷺ .

ففي يوم اليرموك ، يومَ حشدَ الرومانُ مئتينِ وثمانين ألفاً لقتال المسلمين ، كان الزبيرُ هناك واحداً من الفرسان المعدودين الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ وفعّالٌ في تغيير سيرِ المعركة .

فقد اجتمع إليه جماعةٌ من الفرسانِ فقالوا له : ألا تحملُ فنحملَ معك ؟

فقال : إنكم لا تثبتون .

قالوا : بلى ، فحمل وحملوا معه ، فلما واجهوا صفوفَ الرومِ أحجموا ، وانطلق هو يخترق الصفوفَ المتراصّة حتى خرج من الجانب الآخر ، وهو يضربُ بسيفه يميناً وشمالاً وجنودُ الروم وفرسانُهم يتهاوَوْن تحت وميض سيفه ، ويتساقطون كالفراش المبثوث .

وقد فعل ذلك مرتين ، ولم يُصبْهُ يومئذٍ سوى جرحين بين كتفيه ، فلم يكترثْ لما أصابه ، وانطلق كالسهم النافذ يقاتلُ جموعَ الروم حتى انتهتِ المعركةُ المظفّرةُ بنصر المؤمنين، وتخذيل الروم الذين ولّوا هاربين من أرض المعركة .

هذا وقد ذكرتُ تفاصيلَ معركةِ اليرموك في ترجمة أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ .

فضائلُه :

للزبير ﷺ من الفضائلِ والمناقب والآثارِ الحسنة ما يجلُّ

عنِ الوصف ، منها :

ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول : أنا ابنُ الحواري .

فقال : إن كنتَ من ولدِ الزبير وإلاّ فلا .

وروي عن مطيع بن الأسود أنه أوصى إلى الزبير ، فأبى .

فقال : أسألك بالله والرحِمِ إلاّ ما قبلتَ فإني سمعتُ عمرَ يقول : إنَّ الزبير ركنٌ من أركان الدين .

وروى أكثرُ من واحدٍ من الصحابة أن الزبيرَ كان له ألفُ مملوكٍ يؤدّونَ إليه الخَرَاجَ ، فكان يتصدّق به كلّه ، ولا يدعُ لنفسه منه شيئاً .

وقال النبيُّ ﷺ : « لن يَلِجَ النارَ أحدٌ شهد بدراً والحديبية » .

وقد شهدهما الزبير ﷺ .

وروي عن أبي إسحاقَ السُّبيعي أنه قال : سألتُ مجلساً

فيه أكثرُ من عشرين رجلاً من أصحابِ رسول الله ﷺ :

مَنْ كان أكرمَ الناس على رسول الله ﷺ ؟

قالوا : الزبير وعليٌّ بن أبي طالب .

كان الزبير تاجراً ناجحاً ، فقيل له يوماً : بِمَ أدركتَ في التجارةِ ما أدركتَ ؟

فقال : لأني لم أشترِ غبناً ، ولم أُرِدْ ربحاً ، والله يبارك لمن يشاءُ .

وقال فيه أحدُ معاصريه :

صحبتُ الزبيرَ بن العوام في بعضِ أسفاره ، ورأيتُ جسدَه ، فرأيتُه مجذَّعاً بالسيوف ، وإن في صدره لأمثالَ العيون الغائرة من الطعن والرمي .

فقلتُ له : واللهِ لقد شهدتُ بجسمك ما لم أرَهُ بأحدٍ قطٌّ .

فقال لي : أما والله ما منها جراحةٌ إلا مع رسول الله ﷺ ، وفي سبيل الله .

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : لما كان يوم الخندق كنتُ أنا وعمرُ بنُ أبي سلمة في الأُطُمِ[1] الذي فيه نساءُ رسول الله ﷺ وكان يرفعني وأرفعُه .

فإذا رفعني عرفتُ أبي حين يمرُّ إلى بني قريظة ، وكان يقاتلُ مع رسول الله ﷺ يومَ الخندق .

فقال : من يأتي بني قريظة فيقاتلَهم ؟

فقلتُ له حين رجع : يا أبتِ ، إنْ كنتُ لأعرفُكَ حين تمرُّ ذاهباً إلى بني قريظة .

فقال : يا بني ، أما واللهِ إنْ كان رسولُ الله ﷺ ليجمعُ لي أبويه جميعاً يتفدّاني بهما ويقول : فداك أبي وأمي !

وعن جويريةَ قالت : باع الزبيرُ داراً له بستمائة ألفٍ ، فقيل له : يا أبا عبد الله غُبِنْتَ .

قال : كلا، والله لتعلَمُنَّ أني لم أغبن هي في سبيل الله.

---

(1) الأُطُم : بناء مرتفع كالحصن .

وعن الزبير قال : مَنِ استطاع منكم أن يكون له جَنِيٌّ من عمل صالح فلْيفعلْ .

وعن عبد الله بن الزبير قال : جعل الزبيرُ يوصيني يوم الجمل بدَينه ، ويقولُ : إن عجزتَ عن شيء منه فاستعنْ عليه بمولاي .

قال : فوالله ما دريتُ ما أراد ، حتى قلتُ : يا أبتِ، مَنْ مولاك ؟

قال : الله .

قال عبدُ الله : ما وقعتُ في كربةٍ من دَينهِ إلا قلتُ : يا مولى الزبيرِ ، اقضِ عني ..

فيقضيه .

ويكفي لبيان فضله أن النبيَّ ﷺ بشَّره بالجنة ، وأنه واحدٌ من أصحاب الشورى الذين قال عمرُ فيهم : توفِّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ .

لقد كان ﷺ قليلَ الرواية عن النبي ﷺ خوفاً من

الوقـوع في الخطـأ ، أو التغيـير نتيجـةَ النسـيان وغـيرِه ، فعـن عبد الله بن الزبير قال : قلتُ للزبير : مالي لا أسمعُـك تحـدّث عن رسول الله ﷺ كما يحدّث فلانٌ وفلانٌ ؟!

قال : أمَا إني لم أفارقْـهُ منـذ أسـلمتُ ، ولكـني سمعـتُ رسولَ الله ﷺ يقول :

« من كذب عليَّ فليتبوّأْ مقعده من النار » .

قال وهبُ بنُ جرير في حديثه عن الزبير : والله ما قـال متعمِّداً ، وأنتم تقولون : متعمِّداً .

وحين بُعِثَ إلى مصرَ ، قيل له : إن بها الطاعونَ .

فقال : إنما جئنا للطعنِ والطاعون .

قال : فوضعوا السلالـمَ فصعدوا عليها .

ومن شدّة ورعِهِ ، أنه كان لا يغيّر الشيبَ .

ومن شـدّة تواضعـه وشـدة رحمتـه بالصغـار ، أنـه كـان يلاعبُهُم ، فكانوا يقعون على ظهـره وفي حجـرِه ، ويتعلّقـون بكتفيه ، اقتداءً برسول الله ﷺ .

ولقـد رويَ عنـه أنـه مـا وَلِيَ إمـارةً قـطّ ، ولا جبايـةً ، ولا خراجاً ، ولا شيئاً إلاّ الجهادَ في سبيل الله تعالى .

الفتنةُ ومقتل عثمان ﷺ :

لقد أخبر النبيُّ ﷺ أمتَه عن وقوعِ فتنةٍ تصيبُ المسلمين، وتفرّقهم ، وتوقع الشرَّ بينهم ، فقال ﷺ : « تدور رحى الإسلام لخمسٍ وثلاثين » .

وهي السَّنةُ التي قُتِلَ فيها أميرُ المؤمنين عثمانُ بنُ عفان ﷺ ، فكانت هذه السنةُ بدءَ الفتنة ، وما ترتب عليها من اقتتالٍ بين المسلمين ، والأحاديثُ الشريفةُ الواردة في ذلك كثيرةٌ جداً ، منها :

ما رويَ عن جابرٍ ﷺ « أن رسولَ الله ﷺ ذكر فتنةً ، فقال أبو بكرٍ ﷺ : أنا أدركُها ؟

فقال : لا .

فقال عمر : أنا يا رسولَ الله أدركُها ؟

قال : لا .

فقال عثمانُ : يا رسولَ الله ، فأنا أدركُها ؟

قال : بك يُتَلون » .

قال البزار ــ وهو راوي الحديث ــ : وهذا لا نعلمُهُ يُروى إلاّ من هذا الوجه .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « ذكر رسولُ الله ﷺ فتنةً ، فقال : يُقتَلُ فيها هذا المقنعُ يومئذٍ مظلوماً .

يقول ابن عمر : فنظرتُ فإذا هو عثمان بن عفان »[1].

وقال رسولُ الله ﷺ : « إنكم تَلقَوْن بعدي فتنةً واختلافاً »

فقال قائل من الناس : فمن لنا يا رسول الله ؟

قال : « عليكم بالأمينِ وأصحابِه ، وهو يشير إلى عثمان بذلك »[2].

وعن مرةَ البهزي قال : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ في طريقٍ من طرقِ المدينة ، فقال : كيف تصنعون في فتنةٍ

---

(1) رواه أحمد والترمذي .

(2) تفرّد به أحمد ، وإسناده جيد حسن .

تثورُ في أقطار الأرض كأنها صياصي بقر ؟

قالوا : نصنعُ ماذا يا رسول ا لله ؟

قال : عليكم هذا وأصحابَه ، أو اتبعوا هذا وأصحابَهُ .

قال : فأسرعتُ حتى عييتُ ، فأدركتُ الرجلَ ، فقلتُ : هذا يا رسولَ ا لله ؟

قال : هذا .

فإذا هو عثمانُ بنُ عفان .

فقال : هذا وأصحابه »[1].

وقال رسولُ ا لله ﷺ : « ثلاثٌ مَن نجا منهن ، فقد نجا ، موتي ، وخروجُ الدجّال ، وقتلُ خليفةٍ مصطبرٍ قوّامٍ بالحقّ يعطيه »[2].

وعن أبي عونٍ الأنصاري أن عثمان قال لابن مسعود : هل أنت منتهٍ عمّا بلغني عنك ؟

---

(1) رواه الإمام أحمد .

(2) البداية والنهاية لابن كثير .

فاعتذر بعضَ العذر .

فقال عثمانُ : ويحك .. ! إنـي قـد سمعـتُ وحفظـتُ ، وليس كما سمعتَ ، أن رسول ا لله ﷺ قال :

« سـيقتَلُ أمـيرٌ ، ويتبـرأُ متبـرّئٌ » وإنـي أنـا المقتولُ ، وليس عمر ، إنمـا قتَـل عمرَ واحـدٌ ، وإنّـه يُجتمـع عليَّ .[1]

قال ابن كثير في البداية والنهاية :

وهذا الذي قاله لابن مسعود قبل مقتلِهِ بنحـوٍ مـن أربـعِ سنين ، فإنه مات قبله بنحو ذلك .

---

[1] رواه أحمد .

موقف الزبير من بيعة عليّ ﷺ :

بعد مقتل عثمـان ﷺ بـايع المسـلمون عليـاً ﷺ خليفـةً لهم .

وما إن تـمّتِ البيعـةُ ، وقبـل أن يسـتقرَّ أمرُهـا ، حتـى بدأتِ المنغّصاتُ تنهالُ على عليٍّ ﷺ ، والهمومُ تـتراكمُ عليـه حتى أقلقـتْ عليـه ليلَـهُ ، وأتعبـتْ نهـارَه ، وعرّضتْـهُ للسـهرِ والقلق والتعب النفسي والجسدي .

هكذا استقبل عليٌّ ﷺ فجرَ خلافته ، فما تُراه يفعـلُ ، وهو خليفةُ المسـلمين ، والمشـاكلُ قـد تفـاقمتْ حتـى بلغـتْ ذروتَها .

المسلمون يطالبونه بالثـأرِ لعثمـانَ ، وأهـلُ الشـامِ بـايعوا معاويةَ على الخلافـة ورفضـوا مبايعـةَ علـيٍّ ، والخـوارجُ قـومٌ أشدّاءُ متفرّقون في الأمصار ولهم جماعـةٌ وأعـوانٌ ، يـتربصون بالمسلمين ويتظاهرون أنهم معه .

والرومُ يقصـدون بـلادَ المسـلمين بقيـادة قسـطنطينَ بـنِ هرقل في ألفِ مركب .

كل هذه المشاكِل نزلـت دفعـةً واحـدة علـى رأس أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، فما تُراه يفعل ؟

بل إن أصابع الاتهام تشير إليه أنـه وراء مقتـل عثمـان ، حتى لقد طلب منه طلحةُ بن عبيد الله ، والزبيرُ بـن العـوام ، وغيرهما من رؤوس الصحابة أن يقيم الحدَّ علـى قتَلـة عثمـان أو يأخذَ بدمِهِ ، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهـم قـوة وأعـوان ، وأنه لا يمكنُهُ ذلك في الظرفِ الراهن ، ولا يستطيع أن يُعرِّضَ المسلمين لمشاكل هم في غنىً عنها ، وهـو المسـؤولُ أمـام الله والتاريخ والإنسانية عن الإسلام والمسـلمين ، كمـا أنـه يعلـمُ خطرَ الخوارج ، خاصـةً وأن المسـلمين في المدينـةِ قلّـة ، فهـم متفرقـون في البلـدان ، ومشـغولون بالفتوحـات ، وعلـيٌّ ﷺ يتّسمُ بالحكمة وبُعْـدِ النظـر ، ولا يريـد أن يعـرضَ المسـلمين لخطرٍ محققٍ .

فطلب منه الزبيرُ أن يوليَه إمرةَ الكوفة ، وطلب طلحةُ ابن عبيد الله أن يوليَه إمرةَ البصرة ليأتي كلٌّ منهما بجيشٍ من إمارته ليقوى بهم على هؤلاء الخوارج ، وجهَلةِ الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان ﷺ .

فقال لهما عليٌّ : مهلاً عليَّ حتى أنظرَ في هذا الأمر .

ثم جاءه المغيرةُ بنُ شعبةَ على إثرِ ذلك فقال له : إني أرى أن تقرَّ عمالَكَ على البلاد ، فإذا أتتك طاعتُهم استبدلتَ بعد ذلك بمن شئتَ ، وتركتَ مَنْ شئت .

ثم جاءه في اليوم التالي فقال : إني أرى أن تعزلَهم لتعلمَ مَنْ يطيعُكَ ممن يعصيك .

فاستشار عليٌّ عبدَ الله بن عباس في ذلك ، فقال له عبدُ الله : لقد نصحك بالأمسِ ، وغشَّكَ اليومَ .

فبلغ المغيرةَ كلامُ ابنِ عباس فقال : نعم نصحتُهُ ، فلمّا لم يقبلْ غششتُهُ ، ثم خرج المغيرةُ من المدينة ولحق بمكة.

أما طلحةُ والزبيرُ فقدِ استأذنا علياً في الذهابِ إلى مكة

لأداء العمرة ، فأذن لهما .

وازدادتِ الأمورُ تعقيداً حين ولّى عليٌّ سهلَ بنَ حنيفٍ بدلَ معاويةَ على الشام ، فسار سهلٌ حتى بلغ تبوكَ ، فلقيه جنودٌ لمعاوية ، فقالوا : مَنْ أنت ؟

قال : أميرٌ .

قالوا : على أيِّ شيءٍ ؟

قال : على الشام .

فقالوا : إن كان عثمانُ بعثك فحيّهلا بك ، وإن كان غيرُه فارجعْ .

فقال : أوَ ما سمعتُمُ الذي كان ؟

قالوا : بلى .

فرجع إلى عليٍّ .

وكان عليٌّ ﷺ قد ولّى قيسَ بنَ سعدِ بن عبادة على مصر ، فاختلف عليه أهلُها ، ثم بايعهُ الجمهورُ .

وقالت طائفةٌ : لا نبايع حتى نقتلَ قتلةَ عثمان .

وكذلك فعل أهل البصرة وغيرها .

وبذلك انتشرتِ الفتنةُ ، وتفاقم الأمرُ ، واختلفتِ الكلمةُ ، وكتب أبو موسى إلى عليٍّ يخبرُه بطاعة أهل الكوفة ومبايعتِهم إلاّ القليلَ منهم .

وبعث عليٌّ إلى معاويةَ كتباً كثيرةً ، فلم يُجبْهُ عنها ، وتكرّر ذلك ومعاوية لا يجيبُ .

وأخيراً بعث معاويةُ إلى عليٍّ رجلاً يقول له : جئتُك من عند قوم لا يريدون إلاّ القودَ[1] ، كلُّهم موتورٌ ، تركتُ سبعين ألفَ شيخٍ يبكون تحت قميصِ عثمان ، وهو على منبر دمشقَ .

فقال عليٌّ : اللهم إني أَبرأُ إليك من دم عثمان .

ثم خرج رسولُ معاوية من عند عليٍّ ، فانقضَّ عليه الخوارجُ الذين قتلوا عثمانَ يريدون قتلَه ، فهرب منهم،

---

[1] القود : القصاص .

ولم يُفلِتْ إلاّ بعد جهد .

وهمَّ عليٌّ بقتال أهل الشام .

وكتب إلى قيسِ بنِ سعدٍ بمصرَ أن يستنفرَ الناسَ لقتالهم.

كما كتب إلى جميعِ عُمَّالِه في الأمصار يستنفرُهُم للقتال ، وخطب الناسَ وحثّهم على ذلك ، وخرج من المدينة بعد أن استخلف عليها قُثَمَ بنَ العباس فجاءه ابنُه الحسنُ ، فقال : يا أبتِ ، دعْ هذا ، فإن فيه سفكَ دماءِ المسلمين ، ووقوعَ الاختلاف بينهم .

فلم يقبلْ عليٌّ ذلك ، ولم يردَّ عليه ، ومضى لقتال أهل الشام .

بين يدي وقعة الجمل :[1]

تقدّم أن طلحةَ والزبيرَ وجماعةً من أكابر الصحابة ذهبوا من المدينة إلى مكة بقصد العمرة .

ثم خرج طلحةُ والزبيرُ من مكةَ إلى البصرة ليلتحقا بالجيش الذي أعدَّتْهُ أمُّ المؤمنين عائشةُ .. كما سيأتي .

---

(1) إنما تعرضتُ لذكر تفاصيل وقعة الجمل لأن فيها مواقفَ كثيرةً للزبير ﷺ ، لا سيما وأنه يعتبر طرَفاً وشخصيةً كان لها دورٌ فعّالٌ فيها ، من حيث تأليبُ الناس ، وجمعُهم على قتال قتلَة عثمان ، ومن حيث المناقشاتُ، والمراسلاتُ بشأن الصلح ، والقضاء على الفتنة ودعاتِها والمروِّجين لها من أنصار عبد الله بنِ سبأٍ اليهودي ، وقتلة عثمان ﷺ .

كما أن الزبيرَ ﷺ قُتل فيها :

ولذلك وجدت نفسي مضطراً للتعرُّضِ لذكرِ تفاصيلها ، وبيان أسبابها ، والدفاع عن الصحابة ﷺ الذين يتّهِمُهم البعضُ بإثارةِ الفتنة والدعوة إليها ، وتبرئتهم مما نُسِبَ إليهم ، والوقوف على دقائقِها ، ولَفْتِ أنظار ناشئتنا إلى تراثهم المجيد ، خاصةً في هذا الزمان الذي كثُرتْ فيه التيارات الفكريةُ المختلفة والمعادية للإسلام ، والمسيئة للصحابة ﷺ .

وكانت عائشة رضي الله عنها قد عبّأتِ الناسَ ، وأمرتهم بالقتال ، وقامتْ خطيبةً فيهم تحثُّهم على القيام بطلبِ دمِ عثمان ، وذكرتْ ما فعل هؤلاء الخوارجُ من قتلٍ لعثمانَ في بلدٍ حرام ، وشهر حرامٍ ، وانتهاكِ حرمتهما ، ولم يحترموا جوارَ رسول الله ﷺ ، فقاموا بالعدوان ، واستباحوا المحرمات ، وسفكوا الدماء ، وأخذوا الأموال .

فاستجاب الناسُ لها ، وبايعوها على القيام بما فيه مصلحةُ المسلمين ، وقالوا لها : حيثما سِرتِ سرنا معكِ .

واختلفتْ آراؤهم ، فمنهم من قال : نذهبُ إلى الشام.

وقال آخرون : نذهبُ إلى المدينة فنطلبُ من عليٍّ أن يسلِّمَ إلينا قتلَةَ عثمان فنقتلَهم به .

وقال غيرهم : بل نذهبُ إلى البصرة فنجمعُ منها الخيل والرجالَ ، ونبدأُ بمن هناك من قتلَة عثمانَ ، فاتّفق رأيهم على ذلك .

وأمّا أمهات المؤمنين فقد رأينَ أن يذهبنَ إلى المدينة ،

إلاّ حفصةَ بنتَ عمر فقد وافقت على الذهاب إلى البصرة مع عائشة ، فمنعها أخوها عبدُ الله بن عمر من ذلك .

وسارت عائشةُ في ألف فارس من أهل مكة والمدينة ، وقد حُمِلَتْ في هودجٍ على جملٍ اسمُه عسكر ، وتبعها آخرون حتى بلغتْ عدّةُ جيشها ثلاثة آلاف ، فقامت أمهاتُ المؤمنين يودّعنَها ويبكينَ حتى تباكى الناس لبكائهنّ ، فسُمِّيَ ذلك اليوم يوم النّحيب .

وانطلقت عائشةُ بجيشها ، فكان يصلي بالناس بأمرها ابنُ أختها عبدُ الله بنُ الزبير ، ومروان بنُ الحكم يؤذّنُ في الناس للصلاة .

وفي الطريق مرُّوا ليلاً بماءٍ يقال له (الحوأبُ) فجعلتِ الكلابُ تنبحُ عليهم ، فلمّا سمعتْ عائشةُ نباحَ الكلاب قالت : ما اسمُ هذا المكان ؟

قالوا : الحوأب .

فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت : إنّا لله

وإنّا إليه راجعون ، ما أظنُّني إلاّ راجعةً .

قالوا : ولِمَ ؟

قالت سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لنسائه : « ليت شعري ، أيَّتُكُنَّ التي تنبحُها كلابُ الحوأب ؟ » .

ثم أناخت بعيرَها وقالت : ردُّوني .. ردّوني .. أنا والله صاحبةُ ماء الحوأب .

فقال لها عبد الله بنُ الزبير : إنّ الذي أخبركِ أنّ هذا ماءُ الحوأب قد كذب .

ثم نادى الناسُ : النجاةَ .. النجاةَ .. هذا جيشُ عليٍّ بنِ أبي طالب قد أقبل ، فارتحلوا نحو البصرة .

فارتحل الناسُ .

فلما اقتربوا من البصرة كتبت عائشةُ إلى الأحنف بن قيس وغيرِه من رؤوس الناس تعلِمُهم بقدومها ، فأرسلوا إليها عمرانَ بنَ حصين ، وأبا الأسود الدؤليَّ ليعلما سببَ مجيئها، فأخبرتهما أنها جاءت بطلبِ دمِ عثمان

لأنه قُتِلَ مظلوماً ، في شهرٍ حـرام وبلـدٍ حـرام ، وتلـتْ قـولَ الله تعالى :

﴿ لا خـيرَ في كثيرٍ مـن نجواهـم إلاّ مـن أمـرَ بصدقـةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بيـن الناس ومَـنْ يفعلْ ذلـك ابتغـاءَ مرضاةِ الله فسوفَ نؤتيه أجراً عظيماً ﴾[1] .

فخرجا من عندهـا ، فذهبـا إلى طلحـةَ بـنِ عبيـد الله ، فقالا له : ما أقدَمكَ ؟

فقال : الطلبُ بدم عثمان .

فقالا : ما بايعتَ عليّاً ؟

قال : بلى ، والسيفُ على عنقي ، ولا أستقبلُه إن هـو لم يخلِّ بيننا وبين قتلة عثمان .

فذهبا إلى الزبير فسألاه ، فأعطاهما نفسَ الجواب .

فأيقنَ عمـرانُ وأبـو الأسـود أن التفـاهـمَ والإصـلاحَ

---

[1] الآية ١١٤ من سورة النساء .

لن يَتِمّا ، وأنّ الحربَ قائمةٌ لا محالةَ ، فقال أبو الأسود الدؤلي لدى وصولِهما إلى عثمان بنَ حنيف :

يا ابنَ الحنيفِ قد أُتيتَ فانفرْ وطاعنِ القومَ وجالدْ واصبـــرْ
واخرجْ لهم مستلتماً[1] وشمّر

فقال عثمانُ بـن حنيـف : إنّـا لله وإنّـا إليـه راجعـون ، دارت رحى الإسلام وربِّ الكعبة .

فقال عمرانُ بن حُصَين : نعم ، وا لله لتعركنّكـم عركـاً طويلاً .

وذلك لقول رسـول ا لله ﷺ : « تـدورُ رحـى الإسـلام لخمسٍ وثلاثين » المتقدم ذكره .

ثم قال عثمانُ بنُ حنيفٍ لعمرانَ بنِ حصين: أشِرْ عليَّ.

فقال : اعتزلْ فـإني قـاعدٌ في مـنزلي ــ أو قـال : قـاعدٌ على بعيري ـ وتركه وذهب .

[1] اللتمُ : الطعنُ في النحر ، يحثُّه على التجهُّز للقتال .

فقال عثمــانُ : بـل أقنعُهـم حتـى يـأتيَ أمـيرُ المؤمنـين ، ونادى في الناس أن يحملوا السـلاحَ ، ويجتمعـوا في المسـجد ، فلما اجتمعوا أمرهم بالتجهز للقتال ، وكان علـى المنبر فقـام رجـلٌ مـن القـوم وعثمـانُ بـن حنيــف علــى المنــبر فقــال : أيها الناسُ ، إن كان هؤلاء القوم جاؤوا خائفين ، فقد جاؤوا من بلدٍ يأمنُ فيه الطير ، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلَتِه ، فأطيعوني وردُّوهم من حيث جاؤوا .

فقـام الأسـودُ بـن سـريع السـعديُّ فقـال : إنمـا جــاؤوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منّا ومن غيرنا .

ولم يكدْ يفرغُ من كلامه هذا حتى جعـل بعـضُ النـاس يحصبونه بالحجارة ويثيرون الشغب ، فعلم عثمانُ بـن حنيـفٍ أن لقتلـة عثمـانَ بـالبصرة أنصـاراً ، فكـرِه لقــاءهم ورغــبَ أن يجنبَ المسلمين إراقةَ الدماء ، والاقتتال بين الإخوة .

وكذلك كان رأيُ أمير المؤمنــين علـيٍّ ﷺ الـذي كـان يكره الـخـوارجَ ، ويتـربّصُ بهمُ الدوائـر ، ويتحيَّنُ الفرصــةَ

المناسبة ليعاقبَهم ، ويأخذَ حقَّ الله تعالى منهم ، ولكنه حين رأى تمرُّدَ أهل الشام ، وتشبُّثَ معاويةَ بالإمارة ، ومبايعةَ أهل الشام إياه خليفةً ، وخروجَ معظم الصحابة من المدينة ، وفرارَ جماعةٍ من بني أميّةَ إلى مكّة ، واستئذانَ طلحةَ والزبير بأداء العمرة ، ومتابعة كثيرٍ من الناس لهما ، اختلط الأمرُ ، ورأى كلُّ فريقٍ أنه على الحقّ والصواب ، وأن غيرَه على الباطل والخطأ ، كان أمرُ الحرب قد فرضَ نفسَهُ على كلٍّ فريق ، وصار الاقتتالُ لا مفرَّ منه ولا مهربَ ، فكان أمرُ الله قدراً مقدوراً .

وحين يقع أمر الله، تتحيّر العقولُ، وتطيشُ الأحلام ، ويصبحُ الناس تحت الأمر الواقع ، فلم يستطعِ الرجالُ العقلاءُ ضبطَ الأمور ، أو السيطرةَ على مجريات الأحداث .

وقع أمرُ الله ، وكما يقال : إذا وقع القدرُ عميَ البصر، ولم يُغْنِ حذرٌ من قدر .

لقاءُ الجيشين :

وقدم جيشُ أمِّ المؤمنين عائشة فنزل قريباً مـن البصـرة ، فخرج إليه أهلُها الذين أرادوا أن يكونوا مع عائشةَ .

وخرج عثمانُ بنُ حنيـف بجيشـه ، والتقـى الجيشـان في مكـانٍ يقال له (الـمِربَدُ)[1] فتقـدم طلحـةُ بـن عبيـد الله، وكان على ميمنة الجيش ، فتكلَّم وندب الناسَ إلى الأخذ بثأر عثمان ، والطلب بدمه .

وقـام الزبـيرُ بـنُ العـوام فتكلَّـم أيضـاً ، وطـالب بالثـأر لعثمان ، فردَّ عليهمـا بعـضُ مـن كـان في جيـش عثمـانَ بـن حنيفٍ .

وتكلَّمت عائشةُ فحرَّضت على القتـال ، وحثَّـتْ علـى الثـأر ، فثـار بعـضُ أفـرادٍ مـن الجيشـين وتنـاوروا ثـم ترامـوا بالحجارة ، فانضمَّ عددٌ كبيرٌ من جيشِ عثمانَ بنِ حنيـفٍ إلى

---

[1] المربد : مكانٌ يجفَّفُ فيه التمر .

جيشِ عائشة ، فجاء حارثةُ بنُ قدامةَ السعديُّ فقال : يا أمَّ المؤمنين ، وا لله لَقتلُ عثمانَ أهونُ من خروجك من بيتك على هذا الجمل عُرْضَةً للسلاح ، إن كنتِ أتيتِنا طائعةً فارجعي من حيثُ جئتِ إلى منزلك ، وإن كنتِ أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس في الرجوع .

فأقبل حكيمُ بنُ جبلةَ ، وهو من الذين باشروا قتلَ عثمانَ ﷺ، وكان حكيمٌ هذا في جيش عثمانَ بنِ حنيف ، فأشعل نارَ الفتنة ، وسعَّر الحربَ ، وهذا ما سعى إليه الخوارجُ ، وهو واحدٌ منهم ، فكانوا يتظاهرون أنهم مع أمير المؤمنين عليّ ﷺ ولكنهم لا يريدون سوى إشعالِ نار الحرب، وإيقاع الفتنة بين المسلمين .

فتقدم حكيمُ بنُ جبلةَ فبدأ القتالَ ، وجعل أصحابُ عائشةَ يكفّون أيديَهم ، ويمتنعون من القتال ، ويتراجعون إلى الخلف ، وحكيمُ بنُ جبلة يتحرّشُ بهم ، ويقتحمُ عليهم بفرَسه ، ويهوي إليهم بسيفه ، ويجتهد في إشعال الفتنة .

فلما رأى أصحابُ عائشةَ أنه لن يكفَّ عنهم حتى يقاتلوا ، اندفعوا نحوه ، وجعلوا يقاتلون ، فاقتتل الفريقان حتى حجزَ بينهمُ الليل .

وفي اليوم الثاني استأنف الفريقان القتال ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى خيَّم عليهمُ الظَّلامُ ، وقتل من الفريقين عددٌ كبير، وكَثُرَتِ الجراحُ بين الصفّين ، فرأى عقلاءُ الفريقين أن يميلوا إلى الصلح ، على أن يكتبوا بينهم كتباً ، ويبعثوا إلى المدينة رسلاً يسألون أهلَها إن كان طلحةُ والزبيرُ أُكْرِها على البيعة أُخرِجَ عثمانُ بنُ حنيف من البصرة ، وأخلاها .

وإن لم يكونا أُكرها على البيعة ، أخرجَ طلحةُ والزبير منها وأخلياها لهم .

فبعثوا بذلك كعبَ بن مسور القاضي ، الذي ذهب إلى المدينة فدخلها يوم الجمعة ، فقام في الناس يسألُهم : هل بايع طلحةُ والزبيرُ عليّاً طائعَين أم مكرَهين ؟

فسكت الناس جميعاً ولم يتكلَّم أحدٌ ، إلاّ أسامةَ بنَ

زيد، فقال : بل كانا مكرَهين . فقام عليه بعضُ الناس فأرادوا ضربه فمنعهم صهيبُ بنُ سنان ، وأبو أيّوبَ الأنصاريّ وجماعةٌ من عقلاء المسلمين وقالوا له : ما وسِعَكَ ما وسِعَنا من السكوت ؟ .

فقال : لا، والله ما كنتُ أرى أن الأمرَ ينتهي إلى هذا.

وكتب عليٌّ إلى عثمانَ بنَ حنيفٍ يقول له : إنهما لم يُكرها على فرقة ، ولقد أُكرها على جماعةٍ وفضل ، فإن كانا يريدان الخلعَ فلا عذرَ لهما ، وإن كانا يريدان غيرَ ذلك نظرا ونظرنا . وفد كعبُ بنُ مسور على عثمان بكتاب علي، فلما قرأه قال : هذا أمرٌ آخرُ غيرُ ما كنا فيه .

وبعث طلحةُ والزبير إلى عثمانَ بن حنيف أن يخرج إليهما ، فأبى ، ثم تفاقم الأمرُ ، وعظُمَ الخطبُ ، وحصل من بعض أهل البصرة كلامٌ مذموم أدّى إلى وقوع اقتتال بين الناس ، وهم أنصارُ طلحةَ والزبير من جهة ، وأنصار عثمانَ ابن حنيف من جهةٍ أخرى ، فقتل من الطرفين نحوٌ من أربعين

رجلاً ، ثم انقضّ بعضُ أنصار طلحة والزبير على عثمـان بـن حنيف ، ودخلوا عليه قصره فأخرجوه وذهبـوا بـه إلى طلحـةَ والزبير وهـم ينتفون شعرَ لحيته وشاربيه ، فلـم يبـقَ في وجهـه شعرة إلاّ نتفوها ، فلما دخلوا بـه عليهمـا أنكـرا هـذا العمـل واستعظماه وبعثا إلى عائشة رضي الله عنها فأعلماها بالخبر ، فاستفظعتْ هذا العمل ، وأَمرتْ بإطلاق سراحه .

وتسلّم أنصـارُ طلحة والزبير مقاليدَ الأمـور في البصـرة، وولّوا على بيت المال عبدَ الرحمن بن أبي بكر ، وقسّمَ طلحـةُ والزبير أموالَ بيـت المـال في النـاس ، وفضّـلا أهـلَ الطاعـة ، وأقبل عليهمـا النـاسُ يـأخذون أرزاقهـم ، فعظُـم الأمـرُ عنـد جماعةٍ مـن قـوم قتلَـة عثمـان وأنصـارهم ، فركبـوا في جيـش قريب من ثلاثمئةٍ يتقدّمهم حكيمُ بن جبلَة ، وهو الـذي تقـدّم ذكرُه أن أشعلَ نارَ الفتنة في المربد بين الجيشين ، وهـا هـو ذا الآن ينتهزُ فرصةً أخرى ليشعلَها من جديد ، فتبـارز النـاس ، وتقاتلوا ، ووقع الشـــرُّ بينهم ، فرأى أحـدُ العقـلاء أن يقتلَ

مسبّبَ هذه الفتنة ، ومسعّر نارها فتقـدم منـه فضـرب رجلَـهُ فقطعها ، فزحف حكيمُ بنُ جبلةَ إليها حتى أخذهـا وضـرب بها ضاربَه فقتله ثم اتّكأ عليه ، وجعل يقول :

يا ساقُ لن تُراعي إن لك ذراعي أحمي بها كُراعي

وقال أيضاً :

ليس عليَّ أن أموتَ عارُ والعارُ في الناس هو الفرارُ
والمجدُ لا يفضحُه الدمارُ

فمرَّ عليه رجلٌ وهو متكئٌ برأسِـه علـى ذلـك الرجـل ، فقال له : من قتلَكَ ؟

فقال له : وسادتي .

ثم مات ، وقتل يومئذٍ نحوٌ من سبعين من قتلةِ عثمـان ، فضعُف أمرُهم ، وقويَ أمرُ طلحةَ والزبـير ، حتـى لقـد رويَ أن أهل البصرة بايعوهما ، فندب الزبيرُ ألف فـارسٍ يـأخذهم معهم ليقاتل بهم عليّاً فلم يُجبْهُ أحدٌ .

وكتبت عائشةُ إلى زيد بن صوحـان تدعوه إلى نصرتهـا

والقيام معها ، فإن لم يأتِ فلْيكفَّ يدَه ، ولْيلزمْ منزلَه ، أي لا يكون معها ولا عليها .

فردَّ عليها يقول : أنا في نصرتك ما دمتِ في منزلك ، ورفض أن يذهب إليها ، ثم قال : رحِمَ الله أمَّ المؤمنين أمرَها الله أن تلزمَ بيتَها ، وأمرَنا أن نقاتل ، فخرجتْ من منزلها وأمرَتْنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي أحقَّ بذلك منا .

وكذلك كتبت عائشةُ إلى أهل اليمامة والكوفة كما كتبت إلى زيد بن صوحانَ .

وقعتْ هذه الأحداثُ بين فريقين : فريقٍ يناصرُ عائشةَ وطلحةَ والزبير ، وفريق يناصر عثمانَ بن حنيف ، أمّا عليٌّ ابن أبي طالب فإنه لم يخرج بَعْدُ من المدينة بعد أن كان قد تجهّز للخروج إلى الشام ، فلما بلغه أن طلحة والزبير قصدا البصرة وأصبحا فيها، جمع الناسَ، وخطب فيهم وحثّهم على المسير إلى البصرة ليمنَعَهما ومَنْ معهما من دخولها إن أمكن ، أو يخرجَهم منها إن كانوا قد دخلوها ، فتردَّد في الخروج معه

أكثرُ أهل المدينة ، واستجاب بعضهم . وقد رويَ أنه لم يستجب له لهذا الأمر غيرُ ستة من أهل بدر ، وقيل : أربعة .

خروجُ علي بن أبي طالب ﷺ إلى البصرة :

خرج علي ﷺ من المدينة قاصداً البصرةَ ومعه نحوٌ من تسعمئة مقاتل ، فلقيه عبدُ الله بنُ سلام ﷺ وهو بالربذةِ ، فأخذ بعنان فرسه وقال : يا أميرَ المؤمنين ، لا تخرج منها ، فوا لله لئن خرجتَ منها لا يعود إليها سلطانُ المسلمين أبداً .

فجعل بعضُ الناس يسبّونه ، فقال عليٌّ : دعوهُ فنعمَ الرجلُ من أصحاب النبي ﷺ .

وجاء الحسن بن عليّ إلى أبيه وهو في الطريق فقال : لقد نهيتُك فعصيتني ، تقتلُ غداً بمضيعةٍ لا ناصرَ لك .

فقال له علي : إنك لا تزال تحنُّ عليَّ حنانَ الجارية ، وما الذي نهيتني عنه فعصيتُك ؟

فقال : ألم آمرْك قبل مقتل عثمان أن تخرج منها لئلاّ

يُقتَلَ وأنت فيها ، فيقولَ قائلٌ ، أو يتحدّث متحدّث ؟

ألم آمرْك أن لا تبايع الناسَ بعد قتل عثمان حتى يبعث إليك أهلُ كلِّ مِصْرٍ ببيعتهم ؟

وأمرتُك حين خرجتْ هذه المرأةُ ، وهذان الرجلان أن تجلسَ في بيتك حتى يصطلحوا ، فعصيتَني في ذلك كلِّه .

فقال له عليٌّ : أمّا قولُك أن أخرجَ قبل مقتل عثمانَ ، فلقد أُحِيطَ بنا كما أُحيط به .

وأما مبايعتي قبل مجيءِ بيعة الأمصار ، فكرهتُ أن يضيعَ هذا الأمرُ .

وأما أن أجلسَ وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه ، فتريدُ مني أن أكونَ كالضبع التي يحاطُ بها ، ويقالُ : ليستْ ها هنا حتى يشقَّ عرقوبُها فتخرج .

فإذا لم أنظرْ فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني ، فمن ينظرُ فيه ؟ فكفَّ عنّي يا بنيّ .

ولما انتهتْ إليه أنباءُ البصرة وما حدث فيها ، كتب إلى

أهل الكوفة مع محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن جعفر : إني قدِ اخترتكم على أهل الأمصار ، فكونوا لدين الله أنصاراً وأعواناً ، وانهضوا إلينا فالإصلاحَ نريد ، لتعودَ هذه الأمة إخواناً .

فأخذا الكتابَ ومضيا به إلى الكوفة ، وكان عليها أبو موسى الأشعريُّ .

ثم قام عليٌّ ﷺ في الناس خطيباً فقال :

(إنّ الله أعزّنا بالإسلام ورفعنا به ، وجعلنا به إخواناً بعد ذلّةٍ وقلّة ، وتباغضٍ وتباعُد ، فجرى الناسُ على ذلك ما شاء الله ، الإسلام دينُهم ، والحقُّ قائمٌ بينهم ، والكتابُ إمامُهم ، حتى أُصيبَ هذا الرجلُ بأيدي هؤلاء القومِ الذين نزغَهُمُ الشيطانُ لينزغَ بين هذه الأمة ، ألا وإن هذه الأمةَ لا بد مفترقةٌ كما افترقتِ الأمم قبلها ، فنعوذ بالله من شرِّ ما هو كائنٌ ...

ثم عاد ثانيةً فقال : إنه لا بدّ مما هو كائنٌ أن يكون ،

ألا وإن هـذه الأمـةَ ستفترقُ علـى ثـلاثٍ وسـبعين[1] فرقـةً ، شرُّها فرقةٌ تحبُّني ولا تعمل بعملـي ، وقـد أدركتـم ورأيتـم ، فالزموا دينَكم ، واهتدوا بهديي فإنـه هـديُ نبيِّكـم ، واتّبعـوا سنّتَه ، وأعرضوا عما أشـكل عليكـم ، حتـى تعرضـوه علـى الكتاب ، فما عرفه القرآنُ فالزموه ، وما أنكره فردّوه .

وارضـوا بـا لله ربّـاً ، وبالإسـلام دينـاً ، وبمحمّـدٍ نبيّـاً ، وبالقرآن حكَماً وإماماً) .

كلُّ هذا وعليٌّ ﷺ في الرّبذة[2].

فلما عزم على مغادرة الربذة قام إليه ابنُ أبي رفاعـةَ بـنِ رافع ، فقال :

---

[1] اختلف العلماء في صحة هذا الحديث ، فمنهم من يقول : إنه لا يصـحُ مـن جهة الإسناد أصلاً ، لأنه ما من إسنادٍ روي به إلا وفيه ضعف .

ومنهم من اكتفى بتعدُّد طرقه ، وتعدد الصحابـة الذيـن رووا هـذا المعنـى عن رسول الله ﷺ .

[2] الرّبذة : من قرى المدينة على ثلاثةِ أميالٍ على طريق ذات عرق .

يا أمير المؤمنين ، أيَّ شيء تريدُ ؟ وأين تذهبُ بنا ؟

فقال : أمّا الذي نريدُ وننوي فالإصلاحَ ، إن قبلوا منا وأجابوا إليه .

قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟

قال : ندَعُهُم بغدرهم ، ونعطيهمُ الحقَّ ونصبر .

قال : فإن لم يرضوا ؟

قال : ندعُهم ما تركونا .

قال : فإن لم يتركونا ؟

قال : امتنعنا منهم .

قال : فنعم إذن .

فقام إليه الحجّاجُ بنُ غزيّةَ الأنصاريُّ ، فقال : لأُرضينَّك بالفعل كما أرضيتني بالقول ، والله لينصُرُني الله كما سمّانا أنصاراً .

ثم غادر عليٌّ الرّبذةَ فجاءه جماعةٌ من أسدٍ وطيّئ يريدون أن يذهبوا معه .

فقال : فيمن معي كفايةٌ .

ثم جاءه رجلٌ من أهل الكوفة يقال له : عامرُ بنُ مطرٍ الشيباني ، فقال له علي : ما وراءَك ؟ وسأله عن أبي موسى، فقال :

إن أردتَ الصلحَ فأبو موسى صاحبُه ، وإن أردتَ القتالَ فليس بصاحبه .

فقال عليٌّ : والله ما أريدُ إلاّ الصلحَ ممن تمرّد علينا .

ثم جاءه الخبرُ عن قتل جماعةٍ بالبصرة ، وإخراجِ عثمانَ ابن حنيف منها ، وأخْذِ مال بيت المال ، فقال : اللهم عافني مما ابتليتَ به طلحةَ والزبير .

وانطلق نحو البصرة ، فلما انتهى إلى ذي قارٍ قدِمَ عليه عثمانُ بنُ حنيفٍ مهشّماً وليس في وجهه شعرةٌ واحدةٌ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بعثتَني إلى البصرة وأنا ذو لحيةٍ ، وقد جئتُك أمردَ .

فقال : أصبتَ خيراً وأجراً .

ثم قال عن طلحةَ والزبيرِ : اللهم احلُلْ ما عقدا ، ولا تُبرِم ما أحكما في أنفسهما ، وأرِهما المساءةَ فيما قد عملا .

وأقام عليٌّ بذي قارٍ ينتظرُ ما سيعودُ به محمدُ بن أبي بكر ، وصاحبُه محمد بن جعفر ، وكانا قد قدما إلى أبي موسى الأشعري بكتاب أمير المؤمنين عليّ ﷺ ، فلم يُجابا في شيء .

فدخل بعضُ عقلاء الكوفةِ على أبي موسى يعرضون عليه الطاعةَ لعليّ ، فقال : كان هذا بالأمس .

فغضب محمد بن أبي بكر وصاحبُه وأغلظا على أبي موسى القول .

فقال أبو موسى : وا لله إن بيعةَ عثمان لفي عنقي وعنقِ صاحبكما ، فإن لم يكن بدٌّ من قتال ، فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلَة عثمان حيث كانوا ، ومَنْ كانوا .

فذهبا إلى عليّ وهو بذي قارٍ فأخبراه خبرَ أبي موسى .

فقال عليّ للأشتر النخعي : أنت صاحبُ أبي موسى فاذهبْ أنتَ وابن عباسٍ فأصلحْ ما أفسدتَ .

فذهب الأشترُ وابنُ عباس فكلّما أبا موسى ، واستعانا عليه بنفر من الكوفة ، فقام في الناس ، فقال : أيها الناسُ ، إنّ أصحاب محمد ﷺ الذين صحبوه أعلمُ با لله ورسوله ممن لم يصحبْه ، وإن لكم علينا حقاً ، وأنا مؤدٍّ إليكم نصيحةً .

كان الرأيُ أن لا تستخفّوا بسلطان ا لله، وأن لا تجترئوا على أمره ، وهذه فتنة ، النائمُ فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خيرٌ من القاعد ، والقاعدُ فيها خيرٌ من القائم ، والقائمُ فيها خيرٌ من الراكب ، والراكبُ فيها خيرٌ من الساعي ، فأغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنّة ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المضطهَدَ والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجلي هذه الفتنة .

فرجع الأشترُ وابنُ عباس إلى عليٍّ فأخبراه الخبر .

فأرسل عليٌّ ولَده الحسن وعمارَ بن ياسر ، وقال

لعمارٍ : انطلق فأصلحْ ما أفسدتَ . فانطلقا حتى دخلا المسجدَ فتلقّاهما مسروقُ بن الأجدع ، فقال لعمار : علامَ قتلتم عثمان ؟

فقال : على شتم أعراضنا ، وضربِ أبشارِنا .

فقال : وا لله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ، ولو صبرتم لكان خيراً للصابرين .

وخرج أبو موسى فلقيَ الحسنَ بنَ عليّ فضمّه إلى صدرِه ، وقال لعمّار : يا أبا اليقظانِ ، أعدَوْتَ على أمير المؤمنين عثمان فقتلْتَه ؟ ... !

قال : لم أفعلْ ، ولم يَسُؤْني ذلك .

فقاطعهما الحسنُ بن علي ، وقال لأبي موسى : لِمَ تثبّطُ الناس عنا ؟ فوا لله ما أردنا إلاّ الإصلاحَ ، ولا مثلُ أمير المؤمنين يخافُ على شيء .

فقال : صدقتَ بأبي أنت وأمي ، ولكن المستشارَ مؤتَمنٌ ، سمعتُ النبيّ ﷺ يقول :

« إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي ، والماشي فيها خيرٌ من الراكب »[1] .

وقد جعلنا الله فيها إخواناً ، وحرَّم علينا دماءنا وأموالَنا .

فغضب عمار وسبَّ أبا موسى ، وقال : يا أيها الناسُ ، إنما قال له رسول الله ﷺ وحده : أنت فيها قاعداً خيرٌ منك قائماً .

فغضب رجلٌ من بني تميم لأبي موسى، ونال من عمار.

وثار آخرون ونالوا من التميمي ، وأبو موسى يحاول أن يصلح بين القوم ، ويُهدّئ من ثورتهم وتوتّرهم حتى أجهد نفسه ، وكثُر اللغط ، وارتفعتِ الأصواتُ ، فقال أبو موسى:

---

(1) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة ، وللحديث بقيّة وهي : « ... من تشرّف إليها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأً ، أو معاذاً فلْيعُذْ به » .

والتشرُّف : التطلُّعُ . وتستشرفه : أي تجرُّه إليها ، وتدعوه إلى الوقوع فيها ، ليجرفَه تيارها .

أيها الناسُ ، أطيعوني وكونـوا خـيرَ قـومٍ مـن خـير أمـم العرب ، يأوي إليهم المظلومُ ، ويأمنُ فيهم الخائفُ .

وإن الفتنة إذا أقبلت شبَهتْ ، وإذا أدبرت تبيّنت .

ثم أمر الناسَ بكفِّ أيديهم ، ولزوم بيوتهم .

فقام زيد بنُ صوحان ، فقال : أيهـا النـاسُ ، سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، سيروا إليه أجمعين .

فقام القعقاعُ بن عمرو ، فقال : إن الحق ما قاله الأميرُ، ولكنْ لا بدّ للناس من أميرٍ يردعُ الظالم ، وينصـفُ المظلـومَ ، وينتظمُ به شملُ الناس ، وأميرُ المؤمنين عليٌّ إنما يريد الإصـلاحَ فانفروا إليه .

عند ذلك كثُر اللغطُ ، وعلتِ الأصواتُ ، وسمـع عمـارُ رجلاً يسبُّ عائشةَ ، فقـال لـه : اسـكت مقبوحـاً منبوحـاً ، وا لله إنها لزوجة رسول ا لله ﷺ في الدنيـا والآخـرة ، ولكـنّ ا لله ابتلاكم بها ليعلمَ الطائعَ من العاصي .

فقام حجر بن عدي ، فقال : أيها الناس سيروا إلى أمير

المؤمنين **﴿انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسِكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾**[1].

وجعل الناس كلما قام رجلٌ يحرّض على النفير، ثبّطهم أبو موسى، وحثّهم على الإصلاح واجتناب الفتنة.

فقال له الحسنُ بنُ علي: ويحك ..! اعتزِلْنا لا أمَّ لك، ودعْ منبرَنا.

ويروى أن عليّاً عزل أبا موسى عن الكوفة، وأخرجه من قصر الإمارة، واستجاب الناسُ للنفير وخرج مع الحسن تسعةُ آلافٍ حتى قدموا على أمير المؤمنين عليٍّ بذي قار، فرحّب بهم وقال: يا أهلَ الكوفة، أنتم لقيتُم ملوكَ العجم ففضضتم جموعَهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريدُهُ، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بالظلم، ولم نَدَعْ أمراً فيه صلاحٌ إلاّ آثرناه على ما فيه الفسادُ إن شاء الله تعالى.

---

[1] التوبة / ٤١.

فـأيّده النـاسُ ، واجتمعـوا حولَـه بـذي قـارٍ ، وكـانت عبدُ القيس جميعاً بين علي وبين البصرة ينتظرونه وهم ألوفٌ، فبعث عليٌّ ﷺ القعقاع بن عمرو رسـولاً إلى طلحـةَ والزبـير بالبصرة يدعوهما إلى الألفـة والإصـلاح والجماعـةِ ، ويعظـمُ عليهما الفرقةَ والاختلاف .

فذهـب القعقـاع أولاً إلى عائشـةَ بالبصـرة ، فقـال: أي أمَّاه ، ما أَقْدَمَكِ هذا البلدَ ؟

فقالت : أي بنـيّ ، الإصلاحُ بين الناس .

فسـألها أن تبعـث إلى طلحـةَ والزبـير ليحضـرا عندهـا ، فلما حضـرا سـألهما عـن سـبب مجيئهمـا ، فقـالا : إنمـا جئنـا للإصلاح بين الناس .

قال : فأخبراني ما وجهُ هذا الإصلاح ؟ وعلى أيِّ شيءٍ يكون ؟

قالا : قتلَةُ عثمانَ، فإن هذا إن تُرِكَ كان تركاً للقرآن.

فقال : قتلتُما قَتَلَتَـــه من أهل البصرة، وأنتمـا قبل قتلِهم

أقربُ منكم إلى الاستقامة منكم اليوم ، فقتلتم ستمئة رجل ، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم ...

وطال الحوارُ بينه وبينهما ، حتى أخبرهم أن عدداً كبيراً من ربيعةَ ومضرٍ قد اجتمعوا لحربهم .

هنا وبعد صمتٍ طويل ، وإصغاءٍ عميق تدخلَتْ عائشةُ وقالتْ للقعقاع بن عمرو : فماذا تقولُ أنت ؟

قال : أقول : إن هذا الأمرَ دواؤه التسكينُ ، فإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا ، فعلامةُ خيرٍ ، وتباشيرُ رحمةٍ ، وإدراكُ الثأر . وإن أنتم أبيتم ، كانت علامةَ شرٍّ ، وذهابَ هذا الملك .

فآثِروا العافيةَ تُرزقوها ، وكونوا مفاتيح خيرٍ كما كنتم أولاً، ولا تعرّضونا للبلاء فتتعرَّضوا له، فيصرَعنا الله وإيّاكم .

وإني لخائفٌ أن لا يتمَّ حتى يأخذَ الله حاجتَه من هذه الأمة التي قلَّ متاعُها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمرَ الذي

قد حدث أمرٌ عظيمٌ ، وليس كقتلِ الرجلِ الرجلَ ، ولا النفرِ الرجلَ ، ولا القبيلةِ القبيلةَ .

فقالوا : قد أصبتَ وأحسنتَ فارجع ، فإن قدم عليٌّ وهو على مثل رأيك صَلُحَ الأمرُ .

فرجع القعقاع إلى عليّ ، فعرض عليه وجهةَ نظر القوم، فأُعجب بها .

واستبشر الناسُ خيراً ، وتفاءلوا بالصلح ، ولَمِّ الشملِ ، وتوحيد الصّفِّ ، وجمعِ الكلمةِ ، والعودة إلى الألفة والأخوة الإسلاميّة التي أصابها الشرخ فأدماها ، وأوقع بينها الأحقادَ والأضغانَ والعداوةَ والبغضاء ، والذي جعل الناس يتفاءلون أكثرَ ، حين علموا أن عائشة أرسلَتْ إلى عليٍّ تعلمُهُ أنها إنما جاءت للصلح .

ففرح عليٌّ بذلك فرحاً شديداً ، وفرح الناسُ جميعاً ، وقام عليٌّ فيهم خطيباً ، فذكر الجاهليّةَ وشقاءَها وتخلُّفَها ، وذكرَ الإسلامَ ورحمتَه ، وسعادةَ أبنائه بالألفةِ والمحبة بعد

التباغض والتنافر والتناحر والاقتتال ، وأن الله تعالى جمعهم بعد تفرُّقٍ وتشتّتٍ وتمزُّق ، وألّف بين قلوبهم ببعثة محمد ﷺ، قال الله تعالى :

﴿وألّفَ بينَ قلوبهم لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألّف بينهم إنه عزيزٌ حكيم﴾[1]

وأن الله تعالى جمعهم بعد نبيّه ﷺ على الخليفة الأول أبي بكرٍ الصديقِ ، ثم بعده على عمر بن الخطاب ، ثم على عثمان بن عفان ﷺ ، ثم حدث هذا الحدثُ الذي جرى على الأمة .

أقوامٌ طلبوا الدنيا ، وحسدوا من أنعم الله عليه بها ، وعلى الفضيلة التي منَّ الله بها ، وأرادوا ردَّ الإسلام والأشياء على أدبارها ، والله بالغُ أمرِه ، ثم قال : ألا إني مرتحلٌ فارتحلوا ، ولا يرتحلْ معي أحدٌ أعان على قتل عثمان بشيءٍ من أمور الناس .

---

[1] الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

فلما سمع الخوارجُ هذا الكلام ثارتْ ثورتُهم ، وغضبوا غضباً شديداً ، وحسبوا أن عليّاً سيقاتلُهم ، وهم لا يريدون الإصلاحَ بين الناس ، لا يريدون إلاّ وقوعَ الشرِّ والفتنة والقتال بين المسلمين ، وتفريق كلمتهم ، فقالوا : ما هذا الرأيُ وعليٌّ واللهِ أعلمُ بكتاب اللهِ ممن يطلبُ قتلةَ عثمانَ ، وأقربُ إلى العملِ بذلك ، وقد قال ما سمعتم ، غداً يجمعُ عليكمُ الناسَ ، وإنما يريدُ القومُ أنتم ، فكيف بكم وعددكم قليلٌ في كثرتِهم .

فقال الأشترُ النخعي : قد عرفنا رأيَ طلحةَ والزبير فينا.

وأما رأيُ علي فلم نعرفْهُ حتى اليومِ ، فإن كان قدِ اصطلح معهم ، فإنما اصطلحوا على دمائنا .

فإن كان الأمرُ هكذا ألحقنا عليّاً بعثمان .

فقال عبدُ الله بنُ سبأ اليهوديُّ المعروفُ بابن السوداء : بئسَ ما رأيتَ ، لو قتلناه قُتِلْنا ، فإنا يا معشرَ قتلَة عثمان في ألفين وخمسمئةٍ، وطلحةُ والزبيرُ وأصحابُهما في خمسة آلاف،

لا طاقةَ لكم بهم ، وهم إنما يريدونكم .

فقال غلابُ بن الهيثم : دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلّقَ ببعض البلاد فنمتنعَ بها .

فقال ابن السوداء : بئس ما قلتَ ، إذن والله كان يتخطّفُكم الناسُ .

ثم قال ابن السوداء : يا قوم إن عيرَكم من عيرِ الناس، فإذا التقى الناسُ فانشبوا الحربَ ، وقاتلوا الناسَ ، ولا تدَعوهم يجتمعون ، ، فمن أنتم معه لا يجدُ بدّاً من أن يمتنع ، ويشغلُ الله طلحةَ والزبيرَ ومن معهما عمّا يحبون ، ويأتيهم ما يكرهون .

فتفرَّقوا وهم مجمعون على هذا الرأي .

وارتحل عليٌّ في الصباح متّجهاً نحوَ البصرة .

وسار طلحةُ والزبيرُ ومن معهما للقائه ، فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زيادٍ ، فمكثوا ثلاثة أيام يتراسلون .

فأشار بعضهم على طلحةَ والزبيرِ أن ينتهزوا فرصةَ

وجود قتلةِ عثمان، فيميلوا عليهم ميلةً واحدةً فيقتلوهم جميعاً.

فقالا : لا ، إن عليّاً أشار بتسكين هذا الأمر ، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك .

وقام عليٌّ خطيباً في الناس ، فقام إليه الأعورُ بنُ نيّارٍ المنقريُّ فسأله عن سبب مجيئه إلى البصرة .

فقال عليٌّ ﷺ : الإصلاحُ ، وإطفاء الثأرةِ ليجتمع الناسُ على الخير ، ويلتئمَ شملُ هذه الأمة .

قال : فإن لم يجيبونا ؟

قال علي : تركناهم ما تركونا .

قال : فإن لم يتركونا ؟

قال : دفعناهم عن أنفسنا .

قال : فهل لكم في هذا الأمر مثلُ الذي لنا ؟

قال : نعم .

ثم قام إليه أبو سلام الدالاني فقال : هل لهؤلاء

القومِ حجّةٌ فيما طلبوا من هذا الدم ، إن كانوا أرادوا الله في ذلك ؟

قال : نعم .

قال : فهل لك من حجةٍ في تأخيركَ ذلك ؟

قال : نعم .

قال : فما حالُنا وحالُهم إن ابتُلينا غداً ؟

قال : إني لأرجو أن لا يُقتلَ منا ومنهم أحدٌ نقيٌّ قلبُه لله إلاّ أدخله الله الجنةَ .

ثم نظر في وجوه القوم وقال :

(أيها الناسُ ، أمسكوا عن هؤلاء القومِ أيديَكم وألسنتَكم ، وإياكم أن يسبقونا غداً ، فإن المخصومَ غداً مخصومٌ اليوم) .

وفي هذا الموقف قدم الأحنفُ بنُ قيس في جماعةٍ ، فانضمَّ إلى عليّ .

وكان الأحنفُ قد بايع عليّاً بالمدينة ، وذلك أنه كان

قد قدم المدينةَ وعثمانُ محصورٌ ، فسأل عائشةَ وطلحةَ والزبيرَ قائلاً : إن قُتِل عثمانُ فمن أبايعُ ؟

فقالوا : بايع علياً .

ولما قُتل عثمان ، بايع علياً فعلاً ، وهو الآن يقول : ثم رجعتُ إلى قومي فجاءني بعد ذلك ما هو أفظعُ ، حتى سمعتُ الناسَ يقولون : هذه عائشةُ جاءت لتأخذ بدم عثمان، فحِرْتُ في أمري لمن أتبعُ ؟ فمنعني الله بحديثٍ سمعتُه من أبي بكرٍ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ وقد بلغه أن الفرسَ قد ملّكوا عليهمُ ابنةَ كسرى ، فقال :

« لن يفلحَ قومٌ ولّوا أمرهمُ امرأةً » .

ثم قال الأحنفُ لعليّ ﷺ : إن شئتَ قاتلتُ معك ، وإن شئتَ كففتُ عنك عشرةَ آلاف سيف .

فقال عليٌّ : اكفُفْ عنا عشرة آلاف سيف .

الغدر :

ثم بعث عليٌّ إلى طلحةَ والزبير يقولُ : إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاعَ بنَ عمرو ، فكفّوا حتى ننزلَ فننظرَ في هذا الأمر .

فردّا عليه يقولان : إنا على ما فارقْنا عليه القعقاع بنَ عمرو من الصلح بين الناس .

فاطمأنتِ النفوسُ ، وسكنتْ ، واستبشر الناسُ خيراً مرةً أخرى .

وباتوا بخير ليلةٍ ، وبات قتلةُ عثمانَ بشرٍّ ليلةٍ ، فلما أدركوا أن القومَ أوشكوا أن يصطلحوا ، ويخمدوا نارَ الفتنة ، وينتصروا على نوازع الشيطان ، أخذوا يتشاورون في الأمر ، وأن القومَ إذا اصطلحوا شكّلوا خطراً عليهم ، وفي هذا الصلح قتلُهم واستئصالُهم ، وليس فيه خيرٌ لهم أبداً، بل شرٌّ محقّقٌ ومؤكد، لذلك انتهى اجتماعُهم على إثارة الحرب،

والوقيعة بين الناس ، ليسلَموا هم ، ويفتكَ المسلمون بيعضهم .

فقاموا من الفجر والناسُ آمنون يحلُمون بالصلح وحقْنِ الدماء ، وإخماد نارِ الفتنة ، فحملوا السلاح ، وهم قريبٌ من ألفي رجل ، فهجموا على الناس بالسيوف ، وجعلوا يضربونهم ضرباً عشوائيّاً ، فثارتْ كلُّ طائفةٍ إلى قومهم ليمنعوهم ، وقام الناسُ من منامهم مذعورين ولم يروا إلاّ السيوفَ على رؤوسهم، وتنادَوا قائلين : طرقَنا أهل الكوفة ليلاً ، وبيّتونا وغدروا بنا ، وظنّوا أن عليّاً يعلم بالأمر، وهو الذي دفع الناسَ للغدر والقتل .

وفي نفس الوقت كان الهجومُ أيضاً على جيش عليّ الذي فوجئَ به ، وقال : ما للناس ؟

فقالوا : بيّتنا أهلُ البصرة ، وغدروا بنا .

فثارَ كلُّ فريقٍ إلى سلاحه ، ولبس القومُ عدَّةَ الحرب ، وركبوا الخيولَ ، وكلُّ فريق يعتقدُ أن الفريقَ الآخرَ هو

المعتدي ، ومُيِّعَ أمرُ الصلح ، وقُضيَ على أحلامِ الناس بالسلمِ والأمن والأمان بين الإخوة والأهل والعشيرة . فوقع الخطبُ، ونشبتِ الحربُ وقامت على ساقٍ وقدم ، وقد اجتمع مع عليٍّ عشرونَ ألفاً .

واجتمع مع عائشة نحوٌ من ثلاثين ألفاً ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً .

هـذا والخـوارجُ قتلـةُ عثمـان لا يكفّـون أيديَهـم ، ولا يفتُرون عن القتل في الفريقين دون تمييز .

وأمر علـيٌّ مناديَـهُ أن ينـاديَ : ألا كفّـوا أيديكـم ، وأغمدوا سيوفَكم ، فلم يجبْـهُ أحـدٌ ، لأن أحـداً لم يسـمعْه ، فقد طاشـتْ عقـولُ النـاس ، وتحـيّرت أحلامُهـم ، وأنشـبتِ الفتنةُ أظفارَها ، وخدشت المسلمين بأنيابها ، وعملـت فيهـم عملَهـا ، واحتـلّ الشـيطان أرضَ المعركـة وراح يـنزغُ بـين الناس، ويوسوسُ في صدورهم حتى وقع الشرُ ، ولم يبقَ أمـلٌ للصلح والوئام ، وهذا ما يريدُه قتلةُ عثمان ويسعَون إليه .

وفي ساحة القتال ، والمعركةُ على أشُدِّها قام كعبُ بن سوارٍ قاضي البصرة فقال : يا أمَّ المؤمنين ، أدركي الناسَ لعلّ الله أن يصلحَ بكِ بينهم .

فقامت من هودجها وهو فوق البعير ، فوقفتْ بحيثُ ترى الناسَ ، وجعلتْ تنظرُ إليهم وهم يقتتلون ، فرأتِ الزبيرَ وعمارَ بن ياسرٍ يتبارزان ، فجعل عمارُ ينخزه بالرمح ، والزبيرُ يكفُّه عن نفسه ولا يضربُه ، ويقول له : أتقتلني يا أبا اليقظان ؟

فيقول : لا يا أبا عبد الله .

وإنما تركه الزبير وكفّ عن قتاله لأنه حين وقع الخطبُ ، تذكّر قولَ رسولِ الله ﷺ لعمار : « تقتلُك الفئةُ الباغية » ، والزبير كما هو معلوم أقوى من عمارٍ ، وأشدُّ فروسيّةً منه .

ولقد قتل في هذه المعركة عددٌ كبيرٌ جداً من المسلمين ، قتلوا جميعاً بأيدٍ مسلمة ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي

جعل عليٌّ يقول لابنه الحسن :

يا بنيّ ، ليتَ أباك مات قبل هذا بعشرين عاماً .

فقال الحسنُ : يا أبتِ كنتُ أنهاك عن هذا .

فقال عليٌّ : إني لم أرَ الأمرَ يبلُغُ هذا .

وعن أبـي بكـرةَ قـال : لما اشتدّ القتـالُ يـومَ الجمـل ، رأى علي الرؤوسَ تندرُ[1]، أخذ عليٌّ ابنَه الحسنَ فضمّـه إلى صدره ثم قال: (إنا لله يا حسنُ ، أيُّ خيرٍ يُرجى بعد هذا؟!)

لقاءُ عليٍّ والزبير وطلحة ﷺ :

في وسط المعركة ، وملتقى الجيشين ، نادى عليٌّ طلحـةَ والزبيرَ ليخرجا إليه ، فخرجا حتى اختلفت أعناق أفراسهم .

فقال لهما : إني أراكما قد جمعتما خيلاً ورجالاً وعدداً، فهل أعددتُم عذراً يوم القيامة ؟ فاتقيا الله، ولا تكونـا كالتي

---

(1) تندرُ : تسقط .

نقضَتْ غزلَها من بعد قوةٍ أنكاثاً .

ألم أكن حاكماً في دمِكما تحرمانِ دمي ، وأحرمُ دمَكما، فهل من حديثٍ أحلَّ لكما دمي ؟

فقال طلحةُ : ألّبتَ على عثمان .

فقال عليٌّ : يومئذٍ يوفّيهم الله دينَهُمُ الحقَّ ... ثم قال : لعن الله قتلَةَ عثمان .

ثم قال : يا طلحة ، أجئتَ بعرسِ رسول الله ﷺ تقاتلُ بها ، وخبأتَ عرسَك في البيت ؟ أمَا بايعتَني ؟

قال : بايعتُك والسيفُ على عنقي .

وقال للزبير : ما أخرجَك ؟

قال : أنت ، ولا أراكَ بهذا الأمر أولى به مني .

فقال له علي : أما تذكرُ يوم مررتَ مع رسولِ الله ﷺ في بني غنمٍ فنظر إليَّ وضحك ، وضحكتَ إليه ، فقلتَ : لا يدعُ ابن أبي طالبٍ زهوَهُ .

فقال لك رسولُ الله ﷺ : « إنه ليس بمتمرِّدٍ لتقاتلنَّهُ

وأنتَ ظالمٌ له .

فقال الزبير : اللهم نعم ، ولو ذكرتُ ما سرتُ مسيري هذا ، ووا لله لا أقاتلُك .

وعن أبي حزمٍ المازني قال : شهدتُ عليّاً والزبيرَ حين تواقفا ، فقال له علي : يا زبيرُ ، أنشُدُك ا للهَ ، أسمعتَ رسولَ ا لله ﷺ يقولُ : إنك تقاتلُني وأنتَ ظالمٌ ؟

قال : نعم، لم أذكرْه إلاّ في موقفي هذا .. ثم انصرف .

وهناك رواية أخرى تقول :

لما دنا عليٌّ وأصحابُه من طلحةَ والزبير ، ودنتِ الصفوفُ بعضُها من بعض ، خرج عليٌّ فنادى : ادعوا ليَ الزبيرَ بن العوام ، فإني عليّ .

فدُعيَ له الزبيرُ ، فأقبل حتى اختلفتْ أعناقُ فرسيهما ، فقال عليٌّ : يا زبيرُ ، نشدتُك ا للهَ ، أتذكرُ يومَ مرَّ بك رسولُ ا للهِ ﷺ ونحن في مكان كذا .. وكذا ، فقال : « يا زبير ، ألا تحبُّ علياً ؟ »

فقلتَ : ألا أحبُّ ابنَ خالي ، وابن عمي ، وعلى ديني ؟!

فقال : « يا زبيرُ ، أمَا وا لله لتقاتلنّه وأنتَ ظالمٌ له ».

فقال الزبير : بلى ، وا للهِ لقد نسيتُه منذ سمعتُه من رسولِ ا لله ﷺ ، ثم ذكرتُه الآن ، وا لله لا أقاتلُك .

وغادرَ الزبيرُ أرضَ المعركة ، وخرج منها وهو على دابّته يشقّ الصفوفَ . فعرض له ابنُه عبدُ ا لله بنُ الزبير ، فقال : مالَك ؟

فقال : ذكّرني عليٌّ حديثاً سمعتُه من رسولِ ا لله ﷺ ، سمعتُه يقول : « لتقاتلنّه وأنتَ ظالمٌ له » .

فقال عبد ا لله : أو للقتال جئتَ ؟ إنما جئتَ لتصلح بين الناس ، ويصلحَ ا لله بك هذا الأمر .

قال : قد حلفتُ ألاّ أقاتلَه .

وذهب الزبيرُ إلى عائشة ليذكرَ لها أنه قد آلى أن لا يقاتلَ عليّاً .

فقال له ابنُه عبدُ الله : إنك جمعتَ الناسَ ، فلما تـراءى بعضُهـم إلى بعـض خرجـتَ مـن بينهـم ، كفِّـرْ عـن يمينـك واحضُرِ القتالَ .

فأعتق غلاماً له كفّارةً ليمينه ، ولم يشـاركْ في القتـال ، واعتزل الناس .

مقتل الزبير ﷺ :

اعتزل الزبيرُ ﷺ القتالَ ، وغادرَ أرضَ الـمعركة حـين ذكّره عليٌّ ﷺ بحديث رسول الله ﷺ .

وحـين قـابلَ عمـارَ بـنَ ياسـر ﷺ في أرض المعركـة ، ذكر أيضـاً قـولَ النـبي ﷺ لعمـارٍ : « تقتلُـك الفئـةُ الباغيـة » فخشـي إن قُتـل عمـارٌ أن يكـونَ الزبـيرُ مـن الفئـة الباغيـة ، ولا أعتقد أن الزبيرَ وغيرَه من أصحاب رسولِ الله ﷺ يرضى لنفسه أن يكون باغياً ، أو أن يكون من الفئة الباغية .

وما حدث من اقتتـالٍ بين الـمسـلميـن ، وقتْلِ بعضِهم

بأيدي بعضٍ ، أمرٌ وقع بغير اختيارهم ، ولا يدَ لهم به ، بل كان نتيجة مؤامرةٍ خبيثةٍ ودنيئةٍ مبيَّتةٍ بليل ، ونسجَ خيوطَها رجالٌ لا يريدون الخيرَ للإسلام وأهلِه وما أكثرَهم ...!! ما أكثرَ أعداءَ الإسلام والمسلمين .. ! الذين يبغضون ويتآمرون عليهم بالليل والنهار لا يفتُرون عن إحكام خيوطِ المؤامراتِ المتتابعة والمتلاحقة عبرَ تاريخِ الإسلام الطويل ، ويتابعونها باهتمامٍ ، ويُغَذُّونها ، ويراقبون سيرَها وتفاقُمَها، ويضحُّون بكلِّ غالٍ وثمينٍ من أجلِ إنجاح مؤامراتِهم للقضاء على الإسلام وأهلِه ، وهم لا يعلمون أن الله لهم بالمرصاد ﴿ **يريدونَ أن يطفئوا نورَ الله بأفواهِهم ويأبى الله إلاّ أن يتمَّ نورَه ولو كره الكافرونَ * هو الذي أرسل رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليظهرَه على الدين كلّه ولو كرهَ المشركون** ﴾[1] .

---

[1] الآيتان ٣٢ ـ ٣٣ من سورة التوبة .

﴿ إنَّ الذين كفروا ينفقون أموالَهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكونُ عليهم حسرةً ثم يغلَبون والذين كفروا إلى جهنّم يحشرون ﴾[1] .

﴿ أعمالُهم كرمادٍ اشتدّتْ به الريحُ في يومٍ عاصفٍ لا يقدرون ممّا كسبوا على شيءٍ ذلك هو الضّلالُ البعيدُ﴾[2].

فهم :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنَها   فلم يَضِرْها وأوهى قرنَهُ الوعلُ

وحين غادرَ الزبيرُ أرضَ المعركة ، وكرَّ راجعاً إلى المدينة، مرّ بالأحنف بن قيسٍ وقومِه ، وكانوا قد اعتزلوا القتالَ كما مرَّ ، فقال الأحنفُ : ما بالُ هذا جمع بين الناس حتى إذا التقوا كرَّ راجعاً إلى المدينة ؟

---

(1) الآية ٣٦ من سورة الأنفال .

(2) الآية ١٨ من سورة إبراهيم عليه السلام .

فأتبعهُ عمرو بن جرموذ ، وفضالةُ بن حابسٍ وآخرون من جهَلَةِ بني تميمٍ فتعاونوا عليه حتى قتلوه .

ويروى أن عمرو بن جرموذ تبعه فقال له : إن لي إليك حاجةً .

فقال له الزبيرُ : أُدْنُ .

فقال له غلامُه عطيّة : إن معه سلاحاً .

قال : وإنْ .

فتقدّم إليه فجعل يحدّثه وكان وقت الصلاة ، فقال له الزبيرُ : الصلاةُ .

قال عمرو : الصلاةُ ...

فتقدّم الزبيرُ ليصليَ بهما إماماً فطعنه عمرو بنُ جرموذ غدراً فقتله .

والروايةُ الأصحُّ والأشهرُ أن عَمْراً تبعه حتى أدركه بوادٍ يقال له : وادي السباع ، وكان نائماً ، فهجم عليه فقتله غدراً وهو نائم ، فلما بلغ نبأُ قتله امرأته عاتكةَ بنتَ زيدِ بن

عمرو بن نفيلٍ وكانت آخر امرأة تزوّجها ... رثتْه بالأبيات التالية :

غـدرَ ابنُ جرموذٍ بفارسِ بَهمةٍ
يوم اللقـاء وكـان غـيرَ معـرّدِ
يـا عمرو لو نبّهتَـه لوجدتَـه
لا طائشاً رعشَ الجنانِ ولا اليدِ
ثكلتْك أمُّك أن ظفرتَ بمثلِـه
مِـمَّن بقيْ ممن يروحُ ويغتـدي
كم غمرةٍ قد خاضها لم يَثْنِـه
عنهـا طرادُك يا ابنَ فقعِ القردد
والله ربي إن قتلت لـمسلـماً
حلّت عليك عقوبـة المتعمّـد

وقولُها : (فارسُ بهمةٍ) هو الفارسُ الذي لا يُدرى من أين يؤتى له من شدّة بأسه ، والجمعُ : بُهَمٌ .

وفي التهذيب : هو الفارسُ الـذي لا يـدري مقاتلُـه مـن أين يدخل عليه .

و (التعريدُ) : الفرارُ .

وقيل : التعريد : سرعةُ الذهاب في الهزيمة .

وعرَّد الرجلُ تعريداً ، أي فـرّ ، وفي قصيـدة كعـب بـن زهير :

ضربٌ إذا عرَّد السودُ التنابيلُ .... أي فرُّوا وأعرضوا ..[1]

و (الفَقْـع) : نـوعٌ مـن أردإِ أنـواع الكمـأةِ وأسـرعِها فساداً .

و (القردد) : أرضٌ مرتفعةٌ إلى جنبِ وهدةٍ .

قال في اللسان :

والفقعُ ، يشبَّه به الرجل الذليلُ فيقال: هو فقعُ قرقرٍ .

ويقال أيضاً : أذلُّ من فقعٍ بقرقرٍ، لأن الدوابَّ تنجُلُـه

(1) لسان العرب .

بأرجلها .[1]

ولذلك شبّهتْ عاتكةُ زوجُ الزبير عمرو بنَ جرموذٍ بفقع قرددٍ أي أنه ذليلٌ وغادرٌ وجبانٌ لم يجرؤ على مواجهة الزبير لأنه ليس كفؤاً له في الشجاعة والبطولة والفروسية .

قاتلُ الزبير بين يدي علي ﷺ :

ولما غدر عمرو بن جرموذٍ بالزبير وقتله غيلةً ، احتزّ رأسه وذهب به إلى عليٍّ ﷺ معتقداً أن علياً سيكافئهُ على فعلته ، ويحسنُ إليه جزاء ما صنع ، وهو لا يعلم أنه قام برِهانٍ خاسر .

لقد أُسقِطَ في يديه حين سمع علياً يصيحُ آمراً بطرده قائلاً :

« بشِّرْ قاتلَ ابنِ صفيّة بالنار » .

وحين أدخلوا عليه سيفَ الزبير الذي استلبه منه

---

[1] لسان العرب .

بعد اقترافِ جريمته ، أخذه عليٌّ وقبّله ، وأمعن في البكاء وهو يقول :

سيفٌ طالما والله جلا بهِ صاحبُه الكربَ عن رسول الله ﷺ .

وفي روايةٍ : أن عمرو بن جرموذٍ حين جاء بسيف الزبير واستأذن على عليٍّ بالدخول ، سمعه يقول :

لا تأذنوا له وبشّروه بالنار ، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: « بشِّرْ قاتلَ ابن صفيةَ بالنار » .

فقيل : إنه لما سمع ذلك قتل نفسه .

وقيل : بل عاش إلى أن أصبح مصعبُ بن الزبير أميراً على العراق ، فهرب منه ، واختفى عن الأنظار ، فقيل لمصعب بن الزبير : إن عمرو بنَ جرموذٍ ها هنا وهو مختفٍ ، فهل لك أن نأتيك به ؟

فقال : مروهُ فليظهرْ فهو آمنٌ ، والله ما كنتُ لأقتصَّ للزبير منه ، فهو أحقرُ من أن أجعله عدلاً للزبير .

وقد قُتل الزبيرُ ﷺ يومَ الخميس لعشرٍ خلونَ من جُمادى الآخرة سنةَ ستٍّ وثلاثين ، وقد بلغ من العمر ستاً أو سبعاً وستين سنةً رضي الله عنه وأرضاه ، ورحمه وغفر له، وأدخله فسيحَ جنّاتِه ، ﴿... **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيينَ والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً**﴾[1] صدق الله العظيم .

[1] الآيتان ٦٩ - ٧٠ من سورة النساء .

معركة الجمل :

بانسحاب طلحةَ والزبير رضي الله عنهما من أرض المعركة ، وهما أكبرُ شخصيّتين ، وأهمُّهما في جيشِ عائشةَ ، وكانا حريصين على التفاهم والصلح ، تغيّر وجه المعركة ، فاشتدّ الخلافُ ، ونشبتِ الفتنةُ ، ووقعتِ الحربُ ، وحميَ القتالُ ، فنادتْ عائشةُ كعبَ بن سوار وهي في هودجها ، ودفعَتْ إليه المصحفَ ، وقالت له : ادعُهُمْ إليه . وكانت تعتقد أنها بذلك تستطيعُ أن توقفَ القتال ، وتقضي على الفتنة .

هذا وكان عبد الله بن سبأٍ اليهودي وأتباعُه من أهل الشر والفتنة ، يضربون كلَّ من رأوْه بلا تمييزٍ ، فلما رأوا كعب بن سوار رافعاً المصحف رشقوه بالسهام رشقةً واحدة فقتلوه ، ووصلت سهامُهم إلى هودج أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فجعلت تنادي : الله ... الله ... يا بَنيَّ ،

اذكروا يوم الحساب ، ورفعتْ يديها تدعو علـى دعـاة الفتنـة وقتلة عثمان ، فضجَّ الناس معها بالدعاء حتى بلغت أصواتُهم عليّاً ﷺ ، فقال : ما هذا ؟

قالوا : أمُّ المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم .

فقال : اللهم ، العن قتلة عثمان .

واستمرّ أصحـابُ عبـد الله بـن سـبأٍ برشـق هـودج أمِّ المؤمنين بالسهام حتى امتلأ منها وأصبح كالقنفذ .

فتقدم بعضُ الفرسـان مـن الهـودج يدافعـون عنـه حتـى أبعدوا أصحاب الفتنة عنه وقلَّ الخطرُ عن عائشة .

واستمرّ القتال قويّاً ضارياً ، وكـانتِ الحـربُ سـجالاً ، مرة لأصحاب البصرة ، ومرةً لأصحاب الكوفـة ، حتـى قُتِـلَ من الفريقين عددٌ كبير ، وجَمٌّ غفـير ، حتـى لقـد كثُر قطعُ الأيدي والأرجل في هذه المعركة .

هـذا وعائشةُ تحـرضُ أنصارَهـا علـى قتلـة عثمـان ، فنظرتْ عن يـمينهـا فرأت قومـاً يقاتلون ببسـالـةٍ ، فقالت :

مَنْ هؤلاء القومُ ؟

قالوا : نحن بنو بكر بنِ وائلٍ .

فقالت : لكم يقولُ القائلُ :

وجاءوا إلينا بالحديد كأنهم   من العزّةِ القعساء بكرُ بنُ وائلِ

ثم لجأ إليها بنو ناجية ، ثم بنو ضبّة ، فقُتل حول الجمل عددٌ كبير ، حتى لقد قيل : إن سبعين يداً قُطِعَتْ ، وهي آخذةٌ بزمام الجمل .

وعاد أصحابُ الفتنة من قتلة عثمان يقصدون الجمل مرّةً أخرى وقالوا : لا يزالُ الحربُ قائماً[1] ما دام هذا الجملُ واقفاً .

وتنازل عمارُ بنُ ياسر ﷺ - وكان عمره يومئذٍ تسعين عاماً - مع رجلٍ يقال له زابن اليثربي ، فجعلا يقتتلان بين الصفّين ، فقال الناسُ : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، الآن يُقْتَلُ عمار. فضربه ابنُ اليثربي بالسيف، فاتّقاه عمار بدَرَقته،

(1) الحرب مؤنّثة وقد تُذَكّر ، على معنى القتال . المعجم الوسيط .

فغصَّ فيها السيفُ فضربه عمارٌ فقطع رجليـه ، وأُخِـذَ أسـيراً فوضـع بـين يـدي علـيٍّ ﷺ ، فقـال ابـن اليـثربي : اِسـتبقِني يا أميرَ المؤمنين .

قال : أبعدَ ثلاثةٍ تقتُلُهم .. ؟ .. !!

ثم أمر به فقُتل .

هذا ولا يزال القتالُ ضارياً ، والفرسانُ يحمون الجمـلَ ، ويُقَتَّلـون الواحـدَ بعـدَ الآخـر حتـى انتهـى زمامُـهُ إلى رجـلٍ يقالُ له : الحارثُ الضبيّ، من بني ضبة، وكان شجاعاً عنيـداً، فجعل يقول :

نحن بنو ضبّةَ أصحابُ الـجملْ   نُبـارزُ القِرْنَ إذا القِـرْنُ نــزلْ
ننعي ابنَ عفانَ بأطرافِ الأسلْ   الموتُ أحلى عندنا من العســلْ
ردّوا علينا شيخَنا إذا بجلْ[1]

---

[1] القِرْن : بكسر القاف ، الكفُو والنظير في الشجاعة والحرب .
الأسل : الرماح .
بجل : من التبجيل ، أي عظمتُه ووقرتُه .

وكلما قُتِلَ فارسٌ ممن يمسكون بزمام الجمل قام غيرُه حتى قُتِل منهم أربعون رجلاً ، فكانت عائشةُ تقول : ما زال جملي معتدلاً حتى فقدتُ أصواتَ بني ضبّة .

ثم أخذ زمامَ الجملِ سبعون رجلاً من قريش ، وكلٌّ واحدٍ يُقتَل بعد صاحبه حتى انتهى إليه عبدُ الله بن الزبير الذي أخذه وهو لا يتكلّم .

فقيل لعائشةَ : إنه ابنُك ابنُ أختك .

فقالت : واثكلَ أسماءَ . ـ خشيَتْ عليه أن يُقتَل كما قُتِل مَنْ سبقه ـ .

وجاء الأشترُ النخعي ، وهو مالكُ بن الحارث إلى الجمل فتصدّى له عبدُ الله بنُ الزبير فاقتتلا قتالاً شديداً ، وجرح كلٌّ منهما صاحبَه ، ثم تركا السلاحَ وجعلا يتصارعان بالأيدي حتى سقطا على الأرض ، فجعل عبد الله ابن الزبير يقول :

اقتلوني ومالكاً   واقتلوا مالكاً معي

فجعـل النـاس يتسـاءلون ، مـن هـو مـالكٌ ؟ لأنـه معروف بالأشتر . فتقدم جماعةٌ من أصحـاب عليٍّ وعائشة ففرقوا بينهما ، ومنعوهما من القتال .

ثـم حمـل رجـلٌ علـى الجمـل فضـرب قوائمـه فعقـره ، وسقط على الأرض ، فسمع له عجيجٌ لم يُسمعْ أشدُّ منه .

وقـد قيـل : إن الـذي أشـار بعقـرِ الجمـل علـيٌّ ﷺ ، أو القعقاع بن عمرو لئـلاّ تصـاب عائشـةُ بـأذىً ، ولتنتهـي المأساةُ ، وتقفَ الحربُ التي تفانى فيها الناس دفاعاً عن هودج أمِّ المؤمنين رضي الله عنها .

ولمـا عُقِـرَ البعيرُ وسـقط علـى الأرض هـرب النـاسُ من حوله ، وحُمِلَ الهـودجُ ونـادى منـادي عليّ في النـاس : أن لا يتبعوا مُدبراً ، ولا يذففوا[1] على جريـحٍ ، ولا يدخلـوا عليهمُ الدور .

وأمرَ عليٌّ أن يُحمَل الهودجُ من بين القتلى ، كمـا أمـر

---

[1] ذفَّ على الجريح : أجهز عليه .

محمدَ بنَ أبي بكر وعماراً أن يضربا عليه قبّةً .

ودخل محمدُ بنُ أبي بكر على أختِه عائشة فاطمأنَّ عليها .

ثم جاءَ عليٌّ ﷺ فسلّم عليها وقال : كيف أنتِ يا أمه؟

قالت : بخير .

فقال : يغفر الله لكِ .

ثم جاء الناسُ يسلّمون عليها، ويطمئنّون على سلامتها.

ويروى أن أعينَ بنَ ضبيعةَ المجاشعي ، وكان من قتلة عثمان ، اطّلع في الهودج فطردتْه عائشةُ ، وقالت : إليك لعنك الله .

فقال : والله ما أرى إلا حميراء .

فقالت : هتكَ الله سترَك ، وقطع يدَك ، وأبدى عورتَك .

فيروى أنه قُتل بالبصرة وسُلِبَ ، وقطِعتْ يدُه ، ورُمِيَ عرياناً في خربةٍ من خراباتِ الأزد .

فلما كان الليلُ دخلتْ أمُّ المؤمنين البصرة ومعها أخوهـا محمدُ بن أبي بكر . وتسلَّل الجرحى مـن بـين القتلى فدخلـوا البصرةَ .

وجعـل عليٌّ ﷺ يطـوف بـين القتلـى ، فكـان يـترحّمُ عليهـم ، ويسـتغفر لهـم ويقـول : يعزُّ عليَّ أن أرى قريشـاً صرعى .

وجعل ينظر في القتلى وقـد غطُّوا وجـهَ الأرض ، وهـو يبكي ، ويضرب بيديه على فخذيه ويقول : يا ليتني مِتُّ قبـلَ هذا وكنتُ نسياً منسيّاً .

ثم أمر بجمع القتلى من الفريقين فصلّـى عليهـم جميعـاً ، وقـد بلـغ عددُهـم عشـرة آلاف قتيـلٍ مـن كـل فريـقٍ خمسـةُ آلافٍ، رحمهم الله جميعاً ورضي عنهم ، وغفر لهم وأسـكنهم فسيحَ جنّاتِه .

ما بعد المعركة :

أقام عليٌّ ﷺ بعد المعركة ثلاثةَ أيام بظاهر البصرة ، وأمر بجمع ما تركه أصحابُ عائشة ، ثم بحمله إلى المسجد ، فمن عرف شيئاً منهم من الأمتعة أمر بردّه إلى أهله ، ولم يأذنْ لأحدٍ أن يأخذَ منها شيئاً .

وجاءه بعض أصحابه يسألونه أن يقسّمَ فيهم أموالَ أصحاب طلحةَ والزبير فأبى ذلك ، فطعن فيه قتلةُ عثمان وقالوا : كيف تحلُّ لنا دماؤهم ، ولا تحلُّ لنا أموالُهم ؟

فبلغ ذلك عليّاً فقال : أيُّكم يحبُّ أن تصيرَ أمُّ المؤمنين في سهمه ؟ .

فسكت القوم .

ولكن قتلة عثمان لم يرضوا بذلك فجعلوا ينالون من عليّ ، في السرّ والخفاء ، وربما شتموه أحياناً وهم يظهرون له الحبَّ والوفاء والطاعةَ والولاء ، بينما هم في الحقيقة أعداءٌ

ماكرون ، يتربصون به وبالمسلمين ، ويتحيّنون الفرصةَ المواتيةَ للمكر والغدر ، وتنفيذِ مخطَّطِ الخيانةِ والإجرام .

ثم دخل عليٌّ ﷺ البصرةَ ، فبايعه أهلُها على راياتِهم ، حتى الجرحى منهم . وجاءه عبدُ الرحمن بن أبي بكرةَ الثقفي، فبايعه ، فقال له عليٌّ : أين المريضُ ؟ ـ يقصِدُ أباه ـ .

فقال : إنه والله مريضٌ يا أميرَ المؤمنين ، وإنه على مسرَّتِك لحريصٌ .

فمضى إليه فعاده[1] ، فاعتذر إليه أبو بكرة فعذَره .

وعرض عليه عليٌّ إمارةَ البصرة ، فامتنع وقال : رجلٌ من أهلِك يسكنُ إليه الناسُ ، وأشار عليه أن يوليَ ابنَ عباس ، ففعل ، وجعل معه زيادَ بنَ أبيه على الخراج وبيت المال ، وأمرَ ابنَ عباس أن يستعين به ، ويستمع إليه ، وكان زيادُ بن أبيه قد اعتزل الفتنةَ .

---

[1] عاد المريض : زاره .

ثم جاء عليٌّ إلى الدار التي تسكنُها أمُّ المؤمنـين عائشـةُ ، فاستأذن عليها ، فردَّتْ عليه ، ورحّبتْ به ، فسمع عليٌّ بكاءَ النسـاء في دار بـني خلـف يبكـين قتلاهــنَّ ، فهــم عبــدُ الله وعثمـانُ ابنـا خلـف ، ذلـك أن عبـدَ الله قُتِـل مـع عائشــة ، وعثمان قتل مع عليّ ، فلمـا دخـل عليهـنّ علـيٌّ ، قـالت لـه صفيةُ امرأةُ عبد الله ، وهي أمُّ طلحة الطلحات : أيتَمَ الله منك أولادَك كما أيتَمتَ أولادي .

فلم يردَّ عليٌّ عليهـا شيئاً ، وحبـس مـا سمـع في قلبـه ، ولم يُبْدِه لأحدٍ ، فلما خرج أعادَتْ عليه مقالَتها مرّةً أخرى ، وهـو سـاكتٌ لا يـردُّ عليهــا ، فقــال لـه أحــدُ مرافقيــه : يا أمـيرَ المؤمنـين ، أتسـكتُ عـن هـذه المـرأة ، وأنـتَ تسـمعُ ما تقولُ ؟..!

فقال : ويحك ...!.. إنّا أُمِرْنا أن نكفّ عن النساء وهنّ مشركاتٌ ، أفلا نكفُّ عنهنّ وهنّ مسلماتٌ ؟..!

فقال له رجلٌ : يـا أميرَ المؤمنين ، إن على الباب رجلين

ينالان من عائشةَ ، فأمر عليٌّ القعقاع بنَ عمرو أن يجلدَ كلَّ واحدٍ منهما مئةَ جلدةٍ ، وأن يجرِّدهما من ثيابهما .

وجعلتْ عائشةُ رضي الله عنها تسألُ عمَّن قُتِل معها من المسلمين ، وعمن قُتل منهم مع عليّ ، فكانت كلما ذُكر لها واحدٌ منهم ، ترحّمتْ عليه ، واستغفرت له .

وحين عزمتِ الرحيلَ من البصرة بعث معها عليٌّ كلَّ ما تحتاجُ إليه من مركبٍ وزادٍ ومتاعٍ ، وغيرِ ذلك ، وأذن لمن بقي من جيشها أن يرجعَ معها إن شاء ، وأن يبقى في البصرة إن أراد البقاء ، فله حرية الاختيار .

واختار لها أربعين امرأةً من نساء أهل البصرة يرافقْنها إلى المدينة ، وسيَّر معها أخاها محمدَ بنَ أبي بكر .

ولما تجهزَتْ عائشةُ للرحيل جاء عليٌّ فوقف أمام الناس، وخرجتْ إليهم عائشةُ تودّعُهم ، وتدعو لهم ، وتقول : يا بَنِيَّ ، لايعتَبْ بعضُنا على بعضٍ ، إنه والله ما كان بيني وبين عليٍّ في الأمرِ إلاّ ما يكون بين المرأة وأحمائِها، وإنه

على معتبتي لمن الأخيار .

فقال عليٌّ : صدقَتْ وا لله ما كان بيني وبينها إلاّ ذاك ، وإنها لزوجةُ نبيّكم ﷺ في الدنيا والآخرة .

وانطلق ركبُ عائشةَ رضي ا لله عنها مُيَمِّماً شطرَ مكةَ المكرمة ، وسار معها عليٌّ ﷺ مودِّعاً ومشيِّعاً ... أميالاً ، وكان ذلك يوم السبت أولَ شهر رجب سنةَ ستٍّ وثلاثين .

وتابعتْ عائشةُ طريقَها إلى مكةَ ، فأقامتْ بها حتى أقبل موسمُ الحجِّ ، فحجّتْ ثم رجعت إلى المدينة المنوَّرة حيث استقرَّتْ فيها ... رضي ا لله عنها وأرضاها .

الخاتمة :

انتهت معركةُ الجمل ، بعقر الجمل ، وفرارِ من حولَه من جيش عائشة ، وانتصر جيشُ عليّ الذي صدرَتْ إليه الأوامرُ من عليّ ﷺ أن لا يتبعوا هارباً ، ولا يدخلوا على مدبرٍ داراً ، ولا يذففوا على جريحٍ ، ولا يسيئوا إلى أحد ، فالفتنةُ قدِ انتهتْ، وقضيَ أمرُ الله ، ووقع ما قضاه من الأزل، ولا رادَّ لقضائه ، ولا يُسأل عما يفعل .

ولْيرجعِ المسلمون إخوةً كما كانوا ، ولْيدوسوا على الجراح ، ولْيقضوا على الفتنة والمؤامرة ، ولْيجتمعوا لاستئصال رؤوسها ، والقضاء على أربابها ودُعاتِها ، ولْيحتكموا إلى كتاب الله تعالى ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله

والرسول إن كنتم تؤمنون بـا لله واليـوم الآخـر ذلـك خـيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾[1] صدق ا لله العظيم .

هذا وكان من جملة الفارّين ، مروانُ بنُ الحكم ، فاختبأ في دارِ بني خلفٍ ، فلما خرجتْ عائشةُ خرج معها ، فذهبتْ هي إلى مكة ، وتوجّه هو إلى المدينة .

وقـد رويَ أنـه حـين وقعـتِ الفتنـةُ يـوم الجمـل واقتتـل المسلمون ، علم بهـا المسـلمون القـاطنون بـين مكـة والمدينـة والبصرة .

ويروى أنهم علموا ذلك مما كانت تخطفُـه النسـورُ مـن الأيدي والأرجلِ فيسقط منها فوق تلك المواضع .

وقد روي أن أهلَ المدينـة علمـوا بذلـك قبـل أن تغـربَ الشمسُ يومَ الوقعة ، ذلـك أن نسـراً مـرَّ يومئـذٍ فـوق المدينـة وكان يـحمل شـيئاً ، فسقط منه ، فأخذه بعضُهم ، فإذا هـو

---

[1] الآية ٥٩ من سورة النساء .

كفٌّ فيه خاتَمٌ نقشه عبدُ الرحمن بنُ عتابٍ . وا لله أعلم .

انتهى من البداية والنهاية بتصرُّف ...

تمت الرسالة والحمد لله ربّ العالمين

سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم
وصلى ا لله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاةً كاملةً
وسلاماً تاماً إلى يوم الدين .

وإلى اللقاء مع **طلحة بن عبيد ا لله** رضي الله عنه

طلحة بن عبيد الله ﷺ

« من سرَّه أن ينظرَ إلى رجلٍ يمشي على الأرض وقد قضى نحبَه ، فلْينظر إلى طلحة » حديث شريف .

اسمُه ونسبُه :

هو طلحةُ بن عبيد الله بنِ عثمانَ بنِ عمـرو بـنِ كعـب ابن سعد بن تيم بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهـر ابن مالك بن النضر بن كنانة القرشيُّ التيميُّ ، أمُّـه : الصعبـةُ بنتُ الحضرمي ، أختُ العلاء بنِ الحضرميّ .

كنيتُه :

كـان ﷺ يُكنـى أبـا محمـد ، ويُلَقَّـبُ بطلحــة الخـير ، وطلحــة الجـود ، وطلحــة الفيّــاض ، لجــودِه المفيــض ، وعطائه الخيّر .

وهو الصحابي الجليل ، وأحدُ العشرة المبشّرين بالـجنـة

على لسان رسول الله ﷺ .

صفتُه :

كان ﷺ أسمرَ ، كثيرَ الشعر ، حسنَ الوجه ، دقيقَ الأنف ، معتدلَ القامة ، ليس بالطويل ولا بالقصير .

إسلامُه :

أسلم طلحةُ ﷺ بمكةَ قديماً على يد أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ وقبل أن يدخلَ النبيُّ ﷺ دارَ الأرقم .

ولْنصغِ إليه ﷺ وهو يحدّثنا عن قصة إسلامِه ، يقول:

(حضرتُ سوقَ بصرى ، فإذا راهبٌ في صومعته يقولُ : سلوا أهلَ هذا الموسم أفيهم أحدٌ من أهلِ الحرم ؟

فقلتُ : نعم ، أنا .

قال : هل ظهر أحمدُ بعدُ ؟

قلتُ : ومن أحمد ؟

قال : ابنُ عبد الله بن عبد المطلب ، هـذا شهرُه الـذي يخرجُ فيه ، وهو آخرُ الأنبياء ، ومخرجُهُ من الحرم ، ومهـاجَرُه إلى نخلٍ وحرّةٍ وسِباخ ، فإيّاك أن تُسْبَقَ ، فقد أهـلَّ عصـرُه ، وأشرقتْ أيامه .

قال طلحةُ : فوقع في قلبي ما قـال ، فخرجـتُ سـريعاً حتى قدمتُ مكةَ ، فقلتُ : هل كان من حدثٍ ؟

قالوا : نعم ، محمد بن عبد الله الأمينُ تنبّـأ ، وقـد تبعـه ابنُ أبي قحافة .

وجعلَ طلحةُ يحدّثُ نفسَه ، ويقول في سرِّه : محمدٌ ... وأبو بكرٍ ...؟...!! تا لله لا يجتمع الاثنان على ضلالة أبداً .

ولقد بلغ محمد الأربعين مـن عمـره ، ومـا عهدنـا عليـه خلالَ هذا العمر كذبةً واحـدةً ، أفيكـذب اليـومَ علـى الله ، ويقولُ : إنه أرسلني ، وأرسل إليَّ وحياً ..؟..!

هذا الذي يصعُب تصديقه .

وأسـرع طلحـةُ الـخـطـا ميمّمـاً وجهَـه شـــطرَ دار

أبي بكر)[1] .

يقول طلحة : فخرجتُ حتى دخلتُ على أبي بكرٍ ، فقلتُ : أتَبِعْتَ هذا الرجلَ ؟

قال : نعم ، فانطلِقْ إليه فادخلْ عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق .

ثم أخبر طلحةُ أبا بكرٍ بما قال الراهبُ ، فأخذ بيد طلحة ، فدخل به على رسولِ الله ﷺ .

وما إن وقع بصرُ النبي ﷺ على طلحةَ حتى استقبله بابتسامةٍ مشرقةٍ حلوةٍ جميلة ارتسمتْ على شفتيه، فزادتْ وجهه جمالاً وبهاءً ، ونضرةً وإشراقاً ، قابله طلحةُ بابتسامةٍ مماثلة .

فأسرع طلحةُ الخطا ، إلى رسول الله ﷺ فوضع يده في يده مبايعاً على الإسلام ، ناطقاً بشهادة الحق ، ثم أخذ يخبره

---

[1] رجال حول الرسول .

بما حدث بينه وبين الراهب ، فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بذلك ، ودعا لطلحة بالخير .

وما إن أسلم طلحةُ بن عبيد الله ﷺ حتى أخذ نصيبَه من اضطهاد قريشٍ ، وحمل حظَّه من الأذى والتعذيب .

فقد وُكِّلَ به وبأبي بكرٍ رضي الله عنهما نوفلُ بن خويلد ، وكان سفيهاً شريراً ، يقال له : أسدُ قريش ، فقد أخذهما فشدّهما في حبلٍ واحدٍ ، وراح يتفنّنُ في تعذيبهما، وقومُهما من بني تيمٍ ينظرون إليهما ، ولم يمنعوهما منه ، أو يدفعونه عنهما ، ولذلك سُمّيا بـ (القرينين) .

بيدَ أن هذا الاضطهادَ والعذابَ لم يَطُلْ مداهُما ، إذ سرعانَ ما خجل نوفلُ بن خويلدٍ من نفسه ، وخشي أن يقوم بنو تيمٍ يدافعون عن أبي بكرٍ وطلحةَ ، ويمنعون عنهما الأذى ، فهما شخصيّتان معروفتان في بني تيم ، ولهما فيها مكانةٌ ووجاهةٌ ، فلو حدث وقامت بنو تيم للدفاع عنهما لوقع الشرُّ بين قريش ، واحتدم القتالُ بين أهل مكة .

جهادُهُ :

طلحةُ بن عبيد الله ﷺ واحدٌ من الصحب الكرام الذين نزل فيهم قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتظرُ ما بدّلوا تبديلاً** ﴾[1] صدق الله العظيم .

فقد شهد المعاركَ والغزواتِ جميعاً مع رسول الله ﷺ، عدا غزوة بدرٍ لأنه كان غائباً عن المدينة لأمر هام ندبه إليه النبيُّ ﷺ ، ومع ذلك لم يَفُتْهُ أجرُ المشاركة فيها ، فقد ضرب النبي ﷺ له ولسعيد بن زيد بسهم بدرٍ وأجرِها ، فكانا كمن شهدها .

وحين جاءت غزوةُ أحد ، وقف طلحةُ في أرض المعركة شاهراً سيفَه ليبديَ بطولةً خارقة ، وليعوِّضَ ما فاته يومَ بدر .

فحين أذهلتْ المفاجأةُ جنودَ المسلمين لدى سماعِهم النبأَ

---

[1] الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

الكاذب الذي أثاره ابنُ قمئة ، وقال : قتلتُ محمداً ، هنالك ابتُلي المسلمون وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، وفرُّوا من أرض المعركة ، وانفضُّوا من حول الرسول ﷺ ، ولم يبقَ منهم إلاّ القليل حوله يدافعون عنه ، كان طلحةُ حينئذٍ واحداً من الذين ثبتوا معه ، وبايعوه على الموت ، وراحوا يدافعون عنه بكلِّ ما أوتوا من قوة وبسالةٍ .

وحين أبصر طلحةُ سيوفَ المشركين تحيطُ برسول الله ﷺ حريصةً على قتله ، وقف طلحةُ وحده كالجيش اللَّجبِ يضربُ بسيفه البتّار يميناً وشمالاً ، ودخل وسْطَ جموع المشركين حتى فرّقهم عن رسول الله ﷺ وأبعدَهم عنه .

وحين أبصرَ نبيَّه الكريمَ ﷺ واقعاً في الحفرة ، ورأى دمَه الطاهرَ الزكيَّ ينزف من وجهه الشريف ، انقضَّ نحوَه وبسرعةِ البرق تناول يدَه يساندُه ، بينما يده الأخرى تضربُ

بالسيف ، وتهوي على رقاب المشركين الذين أحـاطوا بـالنبيّ الكريم ﷺ ، وملؤوا دائرةَ القتال كأنـهـمُ الجرادُ المنتشر .

ورمى مالكُ بنُ زهير النبيَّ ﷺ بسهمٍ فاتّقاه طلحةُ بيـده عن وجه النـبيّ ﷺ ، فأصـاب خنصـرَه فشُـلَّتْ ، فقـال حـين أصابتْه الرميةُ : حَـسٍّ . فقـال النـبيُّ ﷺ : لـو قـال بسـم الله لدخلَ الجنةَ والناسُ ينظرون .

يقول أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ إذا ذُكِرَ يومُ أحدٍ :

ذلك كلُّه كـان يـومَ طلحـة ، كنـتُ أولَ مـن جـاء إلى النبيّ ﷺ ، فقال لي الرسـولُ ﷺ ولأبـي عبيـدةَ بـنِ الجـرّاح : دونَكـم أخـاكم . ونظرْنـا ، وإذا بـــه بضــعٌ وســبعون بــين طعنـةٍ، وضربـةٍ ، ورميـة ، وإذا إصبَعُـهُ مقطوعـة ، فأصلحنــا من شأنه .

ولقد سمّاه رسولُ الله ﷺ يومئذٍ : طلحةَ الخير .

ويقول : الزبيرُ بن العوام ﷺ : سمعـتُ رسـولَ الله ﷺ يقول : « أوجَبَ طلحةُ » .

مكانتُه :

لقد تحدّث طلحةُ ﷺ عمّا حباه الله عزّ وجلّ من فضلٍ ، وأغدق عليه من نعمةٍ ، فقال :

لما رجع رسولُ الله ﷺ من أحدٍ ، صعِدَ المنبرَ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم مَنْ قضى نحبَه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً** ﴾[1] .

فقام إليه رجلٌ فقال : يا رسولَ الله ، مَنْ هؤلاء ؟

فأقبلتُ وعليَّ ثوبان أخضران ، فقال : أيها السائل، هذا منهم .

وعن عائشةَ بنتِ طلحةَ عن عائشةَ أمِّ المؤمنين قالت :

إني لفي بيتي ، ورسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ بالفِناء ، وبيني وبينهمُ السترُ ، إذ أقبل طلحةُ بن عبيد الله ، فقال

(1) تقدمت .

رسولُ الله ﷺ : « من سرَّه أن ينظرَ إلى رجلٍ يمشي على الأرض وقد قضى نحبَه ، فلْينظر إلى طلحة بن عبيد الله » .

وعن موسى بنِ طلحةَ قال : دخلتُ على معاويةَ فقال: ألا أبشّرُك ؟

قال : قلتُ بلى .

قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « طلحةُ ممن قضى نحبَه » .

ولقد سمّاه رسولُ الله ﷺ يومَ أحدٍ ، طلحة **الخير** ، ويومَ غزوة ذاتِ العُشَيرة ، طلحةَ **الفيّاض** ، ويومَ حنين ، طلحة **الجود** .

ورويَ أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى عليه ثوبين مصبوغين وهو محرِمٌ ، فقال له : ما بالُ هذين الثوبين يا طلحَ ؟

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنما صبغناه بمَدَرٍ .

فقال عمرُ : إنكم أيُّها الرَّهْطُ أئمةٌ يقتدي بكمُ

النـاسُ ، ولـو أن جـاهلاً رأى عليـك ثوبيـك هذيـن لقـــال : قد كان طلحةُ يلبِسُ الثيابَ المصبَّغة وهو محرِم .

وإن أحسن ما يلبس المحـرمُ البيـاضُ ، فـلا تلبِسـوا علـى الناس .

مناقبُه :

كان طلحةُ ﷺ يعملُ تاجراً ، وكان ربحُـه وفـيراً حتـى أصبـح مـن أكـثر المسـلمين ثـراءً ، وأوفرِهـم مــالاً ، ولكنـه لم يكنْ يترُكُ لنفسه وأهلِ بيتِه منه شيئاً .

لقد وضع جميع ماله في خدمة الدين الذي اعتنقـه وآمـن به ، فكان يُنفقه بغير حساب ، وكان اللهُ عزّ وجلّ ينمّيـه لـه ويضاعفُه أضعافاً مضاعفةً بغير حسابٍ .

وكان يؤمن إيمانــاً راسـخاً بـأن مـا ينفقُـه في سـبيل الله عزّ وجلّ لن يذهبَ سُدىً ، وأن الله تعـالى سـوفَ يُخلفُـه ، ويباركُ له فيه .

وهو الذي يتلو قولَ ا لله تبارك وتعالى :

﴿ من ذا الذي يُقرِضُ ا للهَ قرضاً حسناً فيضاعفَهُ لـه أضعافاً كثيرةً ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ إن الذين يتلون كتابَ ا لله وأقاموا الصلاةَ وأنفقـوا مما رزقنـاهم ســرّاً وعلانيَــةً يرجـون تجـارةً لـن تبـورَ* ليوفّيَهـمْ أجورَهــم ويَزيدَهــم مــن فضلِــه إنــه غفــورٌ شكور ﴾[2].

وقولَه تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقنـاكم من قبـلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلّةٌ ولا شفاعةٌ ﴾[3] .

ذلك أنه يعلمُ أن المالَ الذي بين يديه إنما هو في الحقيقـة

---

[1] الآية ٢٤٥ من سورة البقرة .

[2] الآيتان ٢٩ ـ ٣٠ من سورة فاطر .

[3] الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

ملكٌ لله تعالى وهو مستخلَفٌ فيه ، وأنه إمّا أن يكـون حجّـةً له أو عليه يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنـونَ إلاّ مَـنْ أتـى الله بقلـبٍ سليم ، قال تعالى :

﴿ آمنوا با لله ورسولِه وأنفقوا مما جعلَكـم مسـتخلَفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير ﴾[1] .

من أجل ذلك وغيرِه كان طلحة ﷺ ينفقُ مالَه في سبيل الله إنفاقَ مَنْ لا يخافُ الفقرَ ، بل كان يعتقد أن وجودَ المـال في بيته أمرٌ شديدُ الخطر ، وأن الله تعالى سوف يحاسـبُه عليـه حساباً عسيراً .

تقول زوجتُه سُعدى بنتُ عوف :

دخلـتُ علـى طلحـة يومـاً فرأيتـه مهمومـاً ، فسـألتُه : ما شأنُك ؟

فقال : المالُ الذي عندي قد كثُرَ حتى أهمَّني وأكربني .

---

[1] الآية ٧ من سورة الحديد .

فقلتُ له : ما عليك ، اقسِمْهُ .

فقام ودعا الناسَ ، وأخذ يقسِمه عليهم حتى ما بقي عنده منه درهم .

ورويَ أنه باع يوماً أرضاً له بثمنٍ غالٍ ، ثم نظر إلى كومة المال ، ففاضتْ عيناه من الدمع ، ثم قال : إن رجلاً تبيتُ هذه الأموال في بيته لا يدري ما يطرقُ من أمرٍ لمغرور با لله .

ثم دعا بعضَ أصحابه ، وحمل معهم تلك الأموالَ ، ومضى في شوارع المدينة وبيوتِها يوزّعها ، حتى طلع الفجرُ ، و لم يبقَ عنده منها درهمٌ واحد .

يقول جابرُ بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما وهو يصفُ جودَ طلحة :

ما رأيتُ أحداً أعطى لجزيلِ مالٍ من غير مسألة ، من طلحة بن عبيد ا لله .

ويقول السائب بن زيد :

صحبتُ طلحةَ بن عبيد الله في السفر والحضَر، فما وجدتُ أحداً أعمَّ سخاءً على الدرهم والثوب والطعام من طلحة .

كان ﷺ يبحث في المدينة فلا يجدُ عازباً إلاّ زوّجه، ولا فقيراً إلاّ أغناه، ولا محتاجاً إلاّ أعانه، حتى لقد اشتهر بين المسلمين بذلك، فقيل فيه : يزوّج أياماهم، ويخدم عائلَهم، ويقضي ديون غارمهم .

وقيل عنه أيضاً :

كان لا يدعُ أحداً من بني تَيمٍ عائلاً إلاّ كفاه مؤونتَه، ومؤونةَ عياله .

كان ﷺ يُعَدُّ من حلماء قريش، إذا تكلّم، تكلّم بالقرآن، وإذا نطق، نطق بالحكمة، ومَن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً .

فعن إسماعيل بن قيس قال : سمعتُ طلحة بن عبيد الله يقول : إن أقلَّ العيب على المرء أن يجلسَ في داره .

موقفه في الفتنة :

تقدّم معنا في ترجمة الزبير بن العوام ﷺ أن التشابُهَ بين طلحةَ والزبير كبيرٌ جداً ، فلا يُذكَرُ طلحةُ إلاّ ويذكرُ الزبيرُ معه ، ولا يذكرُ الزبيرُ إلاّ ويذكَرُ طلحةُ معه ، وكأنّهما في التشابه توأمان في مقادير الحياة .

وحين جاءتْ فتنةُ عثمان ، كان له موقفٌ واضحٌ وصريحٌ ، وكانت له وللزبير منها وجهةُ نظرٍ معينة بنيا موقفَهما عليها .

فكانا يلحّان على عليٍّ إلحاحاً شديداً للأخذ بدمِ عثمان، وقتْلِ مَنْ قتله من الخوارجِ أصحابِ عبد الله بنِ سبأٍ اليهوديّ عليه لعنةُ الله ، وكانت وجهةُ نظرهما تتمثّل بمطالبة عليٍّ بدم عثمان ، وعليٌّ ﷺ كان يتّسمُ بالحكمة ، وبُعْدِ النظر، ورجاحة العقل ، وهو حريصٌ على مصلحة المسلمين، وتجنيبهم خطرَ الاشتباك مع الخوارج ، وهو يعلمُ أن لهؤلاء

الخوارج أعواناً وعصاباتٍ كثيرةً متفرّقةً في الأمصار .

ويتكرّر إلحاحُ طلحة والزبير على عليٍّ ، وهو يتباطأ بذلك للسبب المتقدم بتكررِ الاعتذار في هذه الظروف الحرجة .

هذا والمسلمون يلحُّون على طلحةَ والزبير أن يضغطا على عليٍّ ، وعليٌّ يبيّن لهما عذرَه ، فهو يعلم خطرَ الخوارج، ويعلمُ أن المسلمين قلّةٌ في المدينة ، وأنه لا يمكنه مقاتلتُهم في الظروف الحالية .

لذلك كان بعضُ المسلمين يتّهمونه بأنه وراء مقتل عثمان ، وبنوا قناعاتهم على أن علياً كان يمكنُه إقناع الخوارج من مغادرة المدينة ، والعودة إلى مصر من حيث أتَوا، لأنه استطاع أن يمنعهم من دخولها أوّلَ مرّة ، فلو منعهم في المرة الأخيرة من دخول المدينة لَمَا حصل ما حصل . وذلك حين قدموا إليها وكانوا نحواً من ستمئة رجلٍ ، فلما اقتربوا من المدينة طلبَ عثمانُ من عليٍّ أن يَخرجَ إليهم ليردَّهم إلى

مصر قبل أن يدخلوا المدينة .

فانطلق عليٌّ ﷺ إليهم وهم بالجحفة ، فأنَّبَهم وشَتَمَهم وأمرهم بالعودة ، فرجعوا على أنفسهم بالملامة . ثم تواعدوا مرّةً أخرى بذي المروة ، وجاءت طائفةٌ منهم إلى عليّ وهو في موضعٍ يقالُ له : أحجارُ الزيت ، فصاح بهم وطردهم ، وقال لهم : لقد علم الصالحون أن جيشَ ذي المروة ، وذي خشبٍ ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فارجعوا لا صبّحكم الله ... فانصرفوا .

وجاء الخوارجُ من أهل البصرة إلى طلحةَ فطردهم ، وأهلُ الكوفة إلى الزبير فطردهم .

فرجع كلُّ فريق منهم إلى قومهم ، وأظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم ، وساروا أيّاماً راجعين ، ثم كرُّوا عائدين إلى المدينة ، فجاءهم عليٌّ فقال للمصريين : ما ردَّكم بعد ذهابكم ورجوعِكم عن رأيكم ؟

فقالوا : وجدنا مع بريدٍ كتاباً بقتلِنا .

وكذلك قال البصريون لطلحة ، والكوفيون للزبير ..

فقال لهم الصحابةُ : كيف علمتُم بذلك من أصحابكم، وقد افترقتم، وصار بينكم مراحلُ ؟ إنما هذا أمرٌ اتّفقتم عليه .

فقالوا : ضعوه على ما أردتم ، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل ، ليعتزلْنا ونحن نعتزلُه .

يقصدون إن تنازل عثمان عن الخلافة تركوه آمناً .

وبعد أخذٍ وردٍّ ، وأحداثٍ كثيرةٍ ... استفحل الشرُّ ، وتفاقم الأمرُ وحاصر الخوارجُ منزلَ عثمان ، فكانت نهايةُ المؤامرة قتْلَ أمير المؤمنين عثمان .

فحين منع عليٌّ الخوارجَ من دخول المدينة المرّةَ الأولى ، ثم منعهم مرةً أخرى ، وفي الثالثة لم يمنعْهم ، اتّهمه بعضُ المسلمين أنه وراءَ مقتل عثمان ، هنا تعقّدتِ الأمورُ ، ووقع الخطْبُ ، وافترق المسلمون ، فمنهم من بايعَ معاويةَ خليفةً ، وهم أهلُ الشام ، ورفضوا مبايعةَ عليٍّ ، وعائشةُ من جهتها تطالبُ بدم عثمان ، وطلحةُ والزبيرُ من جهةٍ أخرى يطلبان

منه ذلك ، وحين تباطأ اتّهموه أنه وراءَ مقتل عثمان ، ووقعتِ الفتنةُ ، واقتتل المسلمون كما مرَّ ... وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

ومع هذا فإن كلاًّ من عليٍّ من جهة ، ومن عائشةَ وطلحةَ والزبيرِ من جهةٍ أخرى يلتمسون مخرجاً من هذا المأزق الكبير ، وملاذاً من الفتنة الطائشة الهوجاء ، ولا يجدون وسيلةً إلاّ دخلوها ، ولا رجاءً إلاّ تعلّقوا به لحقن دماء المسلمين ، والمحافظة على وحدتهم وأخوّتِهم ، ورابطةِ الإيمان التي ربط الله تعالى بها بين قلوبهم .

ولكنّ أعداءَ الإسلام كانوا يشعلون نارَ الفتنة كلّما خَمَدَتْ ، ويثيرون الشرَّ كلّما أُطْفِئ ، ولا يجدون وسيلةً للإيقاع بين المسلمين إلاّ التمسوها حتى وصلوا إلى مأربهم ، وأشفَوا نارَ حقدهم ونفّذوا المخطّطَ الإجرامي بكلِّ دقّةٍ وإحكامٍ . ولم تُفلحْ وسائلُ الصلح ، ولا مناقشاتُ السلام ، ولا أساليبُ المراسلات والمكاتبات ، فوقع ما وقع ، وحدث

ما يكرهه كلُّ مسلمٍ ، ويتأذّى به كلُّ من كان في قلبه حبٌّ لله ورسوله ، وإخلاصٌ لدينه وعقيدته وإخوانه ، ولكن .. ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

مقتلُ طلحة ﷺ :

أبصرَ عليٌّ ﷺ طلحةَ والزبير رضي الله عنهما وسطَ المعركة فدعاهما ، فأقبلا إليه حتى اختلفتْ أعناقُ أفراسِهم .. ودار بينهمُ الحديثُ المتقدم في ترجمة الزبير .

انسحب طلحةُ والزبير من أرض المعركة بعد أن أقنعهما عليٌّ ﷺ بخطئهما .

أما الزبيرُ فقد عرفنا كيف قُتل غدراً رحمه الله تعالى ، ورضي عنه ، وأما طلحةُ فقد جاءه سهمٌ غربٌ أصاب ركبتَه، فانتظم السهمُ مع ساقه خاصرةَ الفرس فجمح به حتى كاد يلقيه ، وهو ينادي : إليَّ عبادَ الله .. فأدركه مولىً له ، فأخذه وأدخله البصرةَ ، فماتَ بدارٍ فيها ، رحمه الله تعالى .

وقيل : بل مات بالمعركة .

ورويَ أن عليّاً ﷺ كان يدورُ بين القتلى فرآه ، فجعل يمسحُ الترابَ عن وجهه ويقول : رحمةُ الله عليك يا أبا محمد ، يعزُّ عليَّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء .

ثم قال ﷺ : إلى الله أشكو عجزي وضعفي ، والله لوددتُ أنّي متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنةً .

ويروى أن الذي رماه بالسهم مروانُ بن الحكم .

فعن عوف قال : بلغني أن مروانَ بنَ الحكم رمى طلحةَ يوم الجمل وهو واقفٌ إلى جنبِ عائشةَ ، فأصاب ساقَه ، ثم قال : والله لا أطلبُ قاتلَ عثمان بعدك أبداً .

فقال طلحةُ لمولىً له : ابغني مكاناً .

قال : لا أقدرُ عليه .

قال : والله هذا سهمٌ أرسله الله ، اللهم خذْ لعثمانَ مني حتى ترضى .

والأصحُّ أن مروانَ بنَ الحكم رماه بسهمٍ ، وهو

منسحبٌ من أرض المعركة .

روى ابن سعد في الطبقات بسنده عن رجلٍ من كلبٍ قال : سمعتُ عبدَ الملك بن مروان يقولُ : لولا أن أميرَ المؤمنين مروانَ أخبرني أنه هو الذي قتل طلحةَ ، ما تركتُ من ولدِ طلحةَ أحداً إلاّ قتلتُه بعثمان بن عفان .

وقد قُتِلَ ﷺ يوم الخميس لعشرٍ خلونَ من جمادى الآخرة سنةَ ستٍّ وثلاثين ، وكان عمُرُهُ يوم قُتل أربعاً وستّين سنة .

وقد قتل هو والزبير في يومٍ واحد ، فكان التشابُهُ بينهما حتى في الموت ، فرضي الله عنه وأرضاه ، ورحمه وغفر له ، وأدخله فسيحَ جنّاتِه ﴿... **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً ...** ﴾ صدق الله العظيم .

رويَ أن رجلاً رأى طلحة ﷺ في المنام وهو يقول : حوِّلوني عن قبري فقد آذاني الماء ... ثلاثَ ليالٍ .

فذهب الرجلُ إلى عبد الله بن عباس ، وكان أميرَ البصرة ، فأخبرهُ ، فاشترى له داراً بالبصرة بعشرة آلاف درهم ، فحوّلوه من قبره إليها ، فإذا قد اخضرَّ من جسده ما يلي الماء ، وإذا هو كهيئته يومَ أصيب .

ليصدُق فيه قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقون * فرحينَ بما آتاهمُ الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] صدق الله العظيم .

روى ابن سعد بسنده عن محمد الأنصاري عن أبيه قال: جاء رجلٌ يوم الجمل فقال : ائذنوا لقاتل طلحة .

قال : فسمعتُ عليّاً يقول : بشرْه بالنار ...

---

[1] الآيتان ١٦٩ - ١٧٠ من سورة آل عمران .

الخاتمة :

روى ابنُ سعدٍ أن عمرانَ بنَ طلحة دخل على عليٍّ ﷺ بعد وقعة الجمل ، فرحّب به عليٌّ وقال :

إني لأرجو أن يجعلَني الله وأباك من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ .. **إخواناً على سررٍ متقابلين** ﴾ .

قال : ورجلان جالسان على ناحية البساط ، فقالا : الله أعدلُ من ذلك ، تقتُلُهم بالأمس ، وتكونون إخواناً على سررٍ متقابلين في الجنة ؟!!

فقال عليٌّ : قوما أَبْعَدَ أرضٍ وأسحَقَها ، فمن هو إذن إن لم أكنْ أنا وطلحة ؟

قال : ثم قال لعمران : كيف أهلُك مَنْ بقيَ مِن أمهات أولاد أبيك ؟ أمَا إنّا لم نأخذْ أرضَكم هذه السنين ونحن نريد أن نأخذَها ، إنما أخذناها مخافةَ أن ينتهبَها الناس ، يا فلان ، اذهب معه إلى ابنِ قَرَظة فمرْه أن يدفعَ إليه

أرضَه وغلّـةَ هـذه السـنين . يـا ابـنَ أخـي ، وأْتِنـا في الحاجـة إذا كانت لك .

وفي رواية :

جاء عمرانُ بنُ طلحة إلى عليّ ، فقـال : تعـالَ هـا هنـا يا ابن أخي .

فأجلسـه جانبَـه ، وقـال : إنـي لأرجـو أن أكـون أنـا وأبو هذا ممن قال الله فيهم :

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غِـلٍّ إخوانـاً علـى سُـررٍ متقابلين ﴾[1] .

فقال له ابنُ الكوّاء : الله أعدلُ من ذلك .

فقـام إليـه بدُرَّتـه فضربــه ، وقـال : أنـتَ ، لا أمَّ لـك، وأصحابُك تُنكِرون هذا .

وفي بعض الروايات أن عليّاً ﷺ لما فرغ من دفن طلحة

---

[1] الآية ٤٧ من سورة الحجر .

والزبير رضي الله عنهما استغفر لهما ، ودعا لهما بخير وودّعهما بكلمات جليلةٍ قال فيها :

إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان من الذين قال الله فيهم : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ إخواناً على سررٍ متقابلين** ﴾ ، ثم رمَقهما بنظرةٍ حانية صافية مودّعاً ، وقال :

سمعتْ أذنايَ هاتان رسولَ الله ﷺ يقول : « طلحةُ والزبير جاراي في الجنة » .

فهنيئاً لطلحةَ والزبير هذه البشارةُ العظيمة ، والفضائلُ الكثيرة .

وهنيئاً لعليٍّ هذه الأخلاقُ العالية ، والنفسُ الطاهرة، والروح الزكيّة .

ورضي الله عنهم وأرضاهم ، وأدخلهم فسيحَ جنّاتِه .

اللهم ارزقنا حبَّك ، وحبَّ نبيّك وأصحابِه ، وحبَّ من

أحبّك ، وحبِّ المسلمين جميعاً يا أرحم الراحمين .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوفٌ رحيم .

آمين والحمد لله رب العالمين ..

***

وأرجو الله عزّ وجلَّ أن أكونَ قد وُفِّقْتُ في جمع هذه الرسالة على الوجه الصحيح الذي يُرضي الله عزّ وجلّ ورسولَه والمؤمنين .

وقد آليتُ على نفسي أن أتحرّى الصدقَ والأمانة في النقل ، والإخلاصَ في العمل دون تحيُّز أو تعصُّبٍ ، أو ميلٍ لطرفٍ دون آخر ، فالخلافُ قام بين صحابة رسول الله ﷺ بعد أن نزغَ الشيطانُ بينهم ، وخرج الأمر من أيديهم ، ففُرِضَ عليهم الاقتتالُ ، وهم جميعاً حريصون على تجنُّبه ، وعلم الوقوع فيه ، وقد لمسنا هذا الجانبَ من خلال سردنا لوقائع الأحداث، ومراسلاتِ القومِ وتتبُّع ردودهم،

واستعراضِ وجهاتِ نظرِ كلٍّ منهم .

وإنك لتلمسُ عزيزي القارئ الكريم أني كنتُ حريصاً عل الدفاع عن الصحابة ﷺ ، وعدم اتّهام أحدٍ منهم بتأييد الفتنة ، أو الميل إليها ، ذلك أنهم كانوا لا يجتمعون على ضلالة ، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: **﴿ والسّابقون الأوّلونَ من المهاجرين والأنصارِ والذين اتّبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضُوا عنهم وأعدَّ لهم جنّاتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم ﴾**[1] صدق الله العظيم .

وقال الله تعالى فيهم : **﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس ﴾**[2] .

وقال : **﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسَطاً ﴾**[3].

---

(1) الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

(2) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(3) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

أي خياراً عدولاً .

وقال : ﴿ **يا أيها النبيُّ حسبُك الله ومَنِ اتّبعك من المؤمنين** ﴾[1] .

وقال : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسولَه أولئك همُ الصادقون** ﴾[2] .

والآياتُ في هذا الموضوع كثيرةٌ ، والأحاديثُ فيه شهيرةٌ، وذلك يقتضي القطعَ بصدقهم وعدالتهم ، وهل يحتاج أحدٌ منهم مع شهادة الله لهم بالصدق والعدالةِ إلى شهادة أحدٍ من الناس ..؟؟..!!!

وهمُ الذين قال الرسولُ الكريمُ ﷺ فيهم :

« الله ... الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً

---

(1) الآية ٦٤ من سورة الأنفال .

(2) الآية ٨ من سورة الحشر .

بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضَهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشكُ أن يأخذَه »[1] .

وقال أبو زرعةَ الرازي :

(إذا رأيتَ الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق . وذلك أن الرسولَ حقٌّ، والقرآنَ حقٌّ ، وما جاء به حقٌّ ، وإنما أدّى إلينا ذلك كلّه الصحابةُ . وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودَنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرحُ بهم أولى وهم زنادقة)[2] .

فلْنتجنّبِ الطعنَ بأحدٍ من الصحابة ، أو الإساءةَ إليه أو النيلَ منه بقولٍ أو فعلٍ أو إشارةٍ.. ﴿ **تلك أمةٌ قد خلَتْ لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتُم ولا تُسألون عمّا كانوا يعملون** ﴾[3]

---

[1] رواه الترمذي وابن حبان .

[2] الإصابة في تمييز الصحابة .

[3] الآية ١٤١ من سورة البقرة .

وإن فُرضَ على أحدٍ منا الخوضُ في خلافاتِ الصحابة ، فلْنؤوّلْه بالخيرِ ولْنقُلْ : إن لكلٍّ وجهةَ نظره في الإخلاص لدين الله ، وخدمةِ المسلمين ، والمجتهدُ مثابٌ على اجتهاده، فإن أصابَ فله أجران ، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد ، فهو إذن مأجورٌ في الحالتين .

ورحم الله الشيخ اللقاني حيث قال في جوهرة التوحيد :

وأَوِّلِ التشاجرَ الذي وَرَدْ   إن خضتَ فيه واجتنبْ داءَ الحسدْ

ونسأل الله عز وجلّ أن يلهمَنا رشدَنا ، ويقينا شرَّ أنفسنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القولَ فيتّبعون أحسنَه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

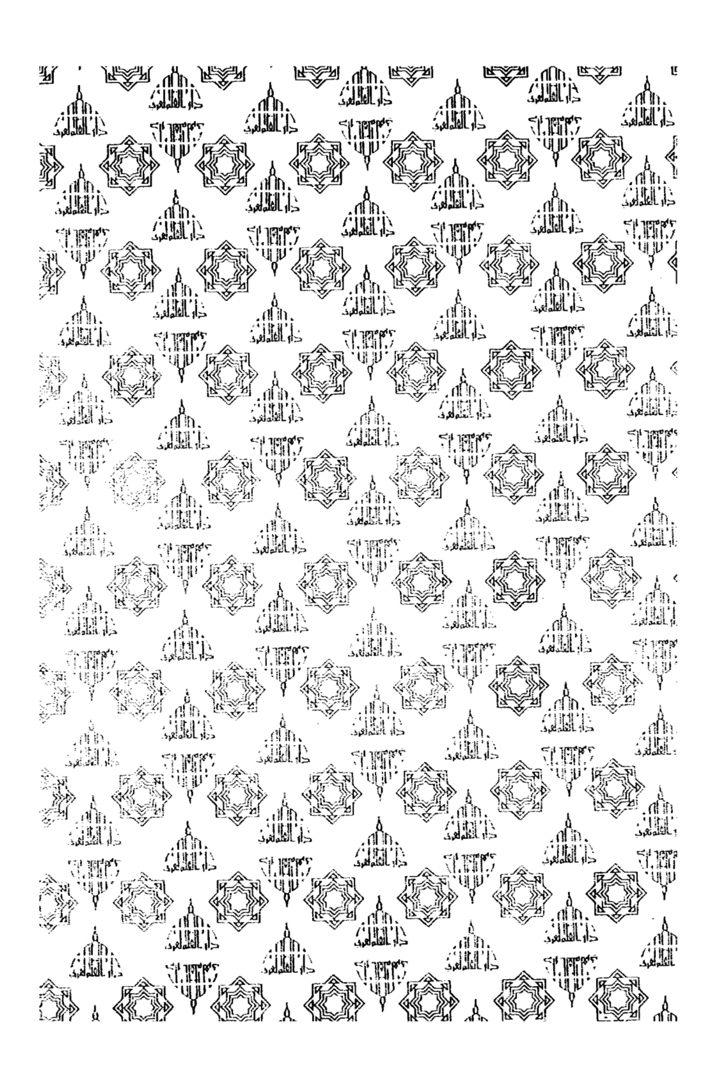
تمت الرسالة والحمد لله رب العالمين

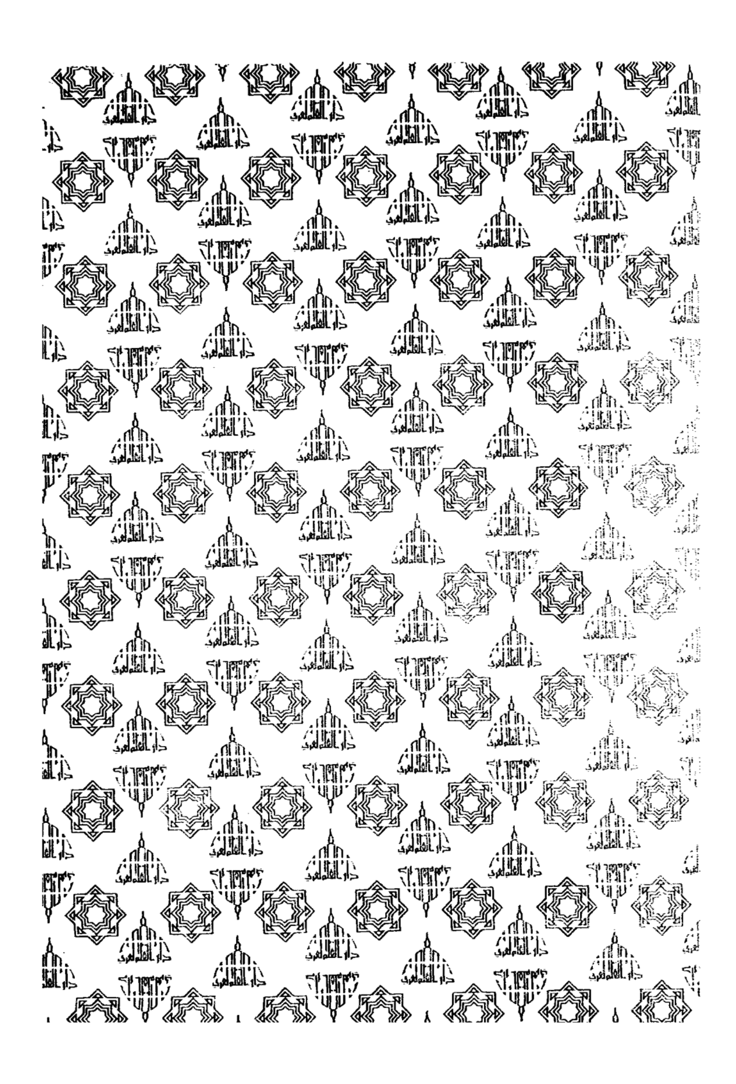
وإلى لقاء آخر مع عملاقٍ آخر من عمالقة الإسلام ...

الفهرس

الزبير بن العوّام

طلحة بن عبيد الله


دار القلم العربي



عمالقة الإسلام

للصغار واليافعين

١ ـ خالد بن الوليد
٢ ـ أبو عبيدة بن الجراح
٣ ـ سعد بن أبي وقاص
٤ ـ المثنى بن حارثة وعلي بن الحسين
٥ ـ عمرو بن العاص
٦ ـ الزبير بن العوام
٧ ـ عبد الرحمن بن عوف
٨ ـ النعمان بن مقرّن
٩ ـ أبو ذر الغفاريّ
١٠ ـ سعد بن معاذ
١١ ـ عمر بن عبد العزيز
١٢ ـ الحجاج بن يوسف
١٣ ـ الحسن والحسين

إنّهم رجالٌ صدقوا فسَطعوا في سماء تاريخنا الإسلامي ، وأخْلصوا فأخمدوا جذوة الأنانيّةِ ، وأخرسوا ألسنةَ الشيطان .

وهبُوا أنفسَهم لله فهانتِ الدّنيا أمامهم وهوتْ صروحُ الشهواتِ من أفئدتهم .

أحبّوا اللهَ ورسوله ، فحَبوْا نحو ساحات الجهادِ،
يَحثُون الردى في وجوهِ أعداءِ الحياة .

أولئك عمالقةُ الإسلام : صروحٌ شامخة ، ومناراتٌ يمتد ضوءُها في كل مكان وزمان .

النَّاشر

